
سلسلة «الكونتيسة»
أحزان صوفيا
مكتبة سمير
دار نشر

أحزان صوفيا

اشتريته في ٥/ محرم/ ١٤٣٤هـ
١٩/ ١١/ ٢٠١٢م

سرمد حاتم شكر

م. سرمد حاتم شكر

أحزان صوفيا

تأليف : كونْتيس دي سيكور



اهداء

الى حفيدتي اليزابيت فراسْنو

عزيزتي تقولين لي غالبًا: «آه يا جدتي كم أحبك. انت طيبة القلب كثيرًا». ان جدتك لم تكن دائمًا طيبة القلب. وهناك اولاد عديدون كانوا أردياء مثلها واصلحوا ذواتهم نظيرها. هذه قصص واقعية جرت لفتاة صغيرة عرفتْها جدّتك. كانت طامعة شرهة، فأمست قانعة. كانت كاذبة فغدت صادقة. كانت سارقة فاصبحت أمينة. اخيرًا كانت لئيمة فباتت كريمة شهمة . وقد حاولت جدّتك أن تحذو حذوها. فتشبّهوا أنتم بها، يا اعزائي الصغار. وسيسهُل هذا عليكم لانكم لا تحوون جميع نقائص صوفيا.

كونتيس دي سيكور

من اسرة رسْطبْشين





١

دمية من الشمع

صوفيا: – «تعالي يا خادمتي» صاحت صوفيا يومًا وهي تسرع الى غرفتها. تعالي حالًا لتفتحي لي صندوقًا أرسله لي ابي من باريس. وأظن انه يحوي دمية من الشمع كان قد وعدني بها.

الخادمة: – أين الصندوق؟

صوفيا: – في الغرفة المجاورة. تعالي سريعًا؟ يا خادمتي أتوسّل اليكِ ان تعجّلي.

وضعت الخادمة شغلها جانبًا وتبعت صوفيا الى الغرفة

المجاورة، حيث كان صندوق أبيض موضوعًا على كرسي. ففتحته الخادمة، ورأت صوفيا رأس دمية من الشمع شقراء اللون مجعّدة الشعر. فهتفت بفرح، وأرادت ان تمسك بالدمية التي كانت لا تزال ملفوفة بورق الصرّ.

الخادمة: - إحذري يا صوفيا. لا تشدّيها بقوة لئلّا تكسريها. فالدمية مربوطة ببريم متين.

صوفيا: - اقطعيه وانتزعيه سريعًا يا خادمتي لآخذ دميتي.

اما الخادمة، فبدلًا من أن تسحب وتنتزع أخذت مقصها وقطعت البريم ورفعت الورق. وهكذا تمكّنت صوفيا من استلام أجمل دمية وقع نظرها عليها في حياتها. خدّاها وَرْدِيّا اللون، ولها غمّازات حلوة، وعيناها برّاقتان، وعنقها وصدرها وذراعاها من الشمع الجذاب الزاهي، ثيابها بسيطة جدًا وهي عبارة عن ثوب قطني أبيض مطرّز الاطراف وله زنار أزرق، وجوارب قطنية وحذاء من الجلد الاسود اللامع.

قبّلتها صوفيا أكثر من عشرين مرة، وحملتها بين ذراعيها، وراحت تقفز وترقص. وكان في زيارة صوفيا ابن خالتها المدعو بولس والبالغ من العمر خمس سنوات. فأسرع لدى سماعه صيحات الفرح التي أفلتت منها. واذا بها تقول له:

صوفيا: - أنظر يا بولس كم هي جميلة هذه الدمية التي ارسلها لي أبي!

بولس: - أعطيني اياها لأراها بتمعُّن.

صوفيا: - كلا ستكسرها.

بولس: - أؤكّد لك انني أحترس في حملها. وسأردّها لك حالًا.

فناولت صوفيا الدمية ابن خالتها وهي توصيه بأن ينتبه في حملها جيدًا وأن لا يوقعها. وأعادها بولس اليها، وهو ينظر الى كل الجهات، ويهزّ رأسه...

صوفيا: - لماذا تهز رأسك؟

بولس: – لان هذه الدمية غير متينة، وأخشى ان تكسريها.

صوفيا: – كن مطمئن البال سأداريها كثيرًا ولن أكسرها أبدًا. سأطلب من أمي أن تدعو كميليا ومدلين الى تناول الغداء معنا لأُريهما دميتي الجميلة .

بولس: – سيكسرانها إذًا.

صوفيا: – كلّا، هما طيّبتا القلب، ولا تريدان ازعاجي بكسر دميتي الحلوة.

في اليوم التالي سرّحت شعر دميتها وألبستها ثيابها لان أصحابها سيرونها. وعندما جهّزتها لاحظت عليها بعض الشحوب فقالت لنفسها: ربما أصابها برْد لان قدميها كانتا مجلّدتين، سأضعها في الشمس على حافة نافذة قاعة الاستقبال.

فسألتها والدتها:

الام: – ماذا تفعلين يا صوفيا قرب النافذة؟

صوفيا: - أريد أن أدفّئ دميتي يا ماما لانها باردة.

الام: - إحذري. ستدعينها تذوب.

صوفيا: - لا لا يا ماما، لا خطر عليها من هذه الناحية. فهي صلبة كالخشب.

الام: - لكن الحرارة سترخيها وسيحلّ بها بعض التلف. فانتبهي.

لم تُرِدْ صوفيا ان تصدّق امها. فمدّدت الدمية في الشمس المحرقة.

وفي تلك اللحظة سمعت دويّ عربة كانت تنقل صديقتيها اللتين وصلتا. فأسرعت لاستقبالهما. امّا بولس فظلّ ينتظرهما امام باب المنزل. فدخل الجميع الى القاعة راكضين. ومع قلة صبرهما لمشاهدة الدمية بدأت الفتاتان زيارتهما بالسلام على السيدة دريان والدة صوفيا ثم ذهبتا الى صوفيا التي كانت تحمل دميتها وتنظر اليها باعجاب.

مدلين (وهي تنظر الى الدمية) - الدمية عمياء ليس لها عينان.

كميليا: - خسارة. كم هي جميلة!

مدلين: - لكن، كيف هي عمياء؟ غير ممكن أن لا تكون لها عينان.

لم تقل صوفيا كلمة، بل نظرت الى الدمية وبكت.

السيدة دريان: - لقد قلت لك، يا صوفيا ان دميتك سيصيبها عطب اذا تشبّثت بوضعها في الشمس. من حسن الحظّ لم يمرّ الوقت اللازم على الوجه والذراعين لتذوب هي أيضًا. هيّا لا تبكي. انا كالطبيب الماهر أستطيع ان أعيد اليها عينيها.

صوفيا (باكية): - هذا مستحيل يا ماما لم يعُد لها من عينين .

فاخذت السيدة دريان الدمية وهي تبتسم وهزّتها قليلا. فسُمع كأن شيئا قد دار في الرأس. وما لبثت

السيدة دريان ان قالت: هذان هما العينان اللذان نسمع ضجتهما. لقد ذاب الشمع المحيط بهما فوقعتا الى الداخل، وسأجتهد ان أخرجهما، فاخلعوا عن الدمية ملابسها، يا اولاد. بينما أُحضر انا عدّتي.

حالًا أسرع بولس والبنات الثلاث الى الدمية ونزعوا عنها ثيابها، فكفّت صوفيا عن البكاء، وانتظرت بفارغ الصبر ما سيجري. عادت الأم وأخذت مقصّها وعزلت جسم الدمية المفتوق عند الصدر. كانت العينان في داخل الرأس فوقعتا على ركبتيها، وتناولتهما بالملقط وارجعتهما الى حيث يجب ان تكونا. ولكي تمنعهما من السقوط مرة ثانية صبّت على مكانهما في الوجه قليلًا من الشمع المذوَّب الذي جاءت به في مقلاة صغيرة. وانتظرت بضع لحظات حتّى برد الشمع وجمد ثم خاطت الرأس على الجسم. لم تتحرك البنات الصغيرات. وكانت صوفيا تنظر بفارغ الصبر الى جميع هذه العمليات وهي خائفة ان لا تكون ناجحة. لكنها عندما

أبصرت دميتها مرمّمة وجميلة كما كانت سابقًا طوّقت عنق والدتها بذراعيها وطبعت على خديها عشر قبلات قائلة: «أشكرك يا ماما سأطيعك أكيدًا بعد الان.»

فألبس الاولاد الدمية ثيابها وأجلسوها على مقعد واخذوها للنزهة وهم ينشدون منتصرين وصوت صوفيا يعلو على الجميع:

لتحيا الماما

التي أغمرها بالقبل.

لتحيا الماما

التي أحيت لي الامل.

وقد عاشت الدمية طويلًا محاطةً بالعناية والمحبة. لكنها شيئًا فشيئًا فقدت جاذبيّتها هكذا:

ذات يوم خطرت ببال صوفيا فكرة هي أن غسل الدمية مفيد، بما ان الاولاد يستحمّون لينظفوا. فأخذت ماءً واسفنجة وصابونًا، وراحت تغسل دميتها. فنظّفتها جيدًا حتى أزالت كل ألوانها: من الخدّين والشفتين اللتين

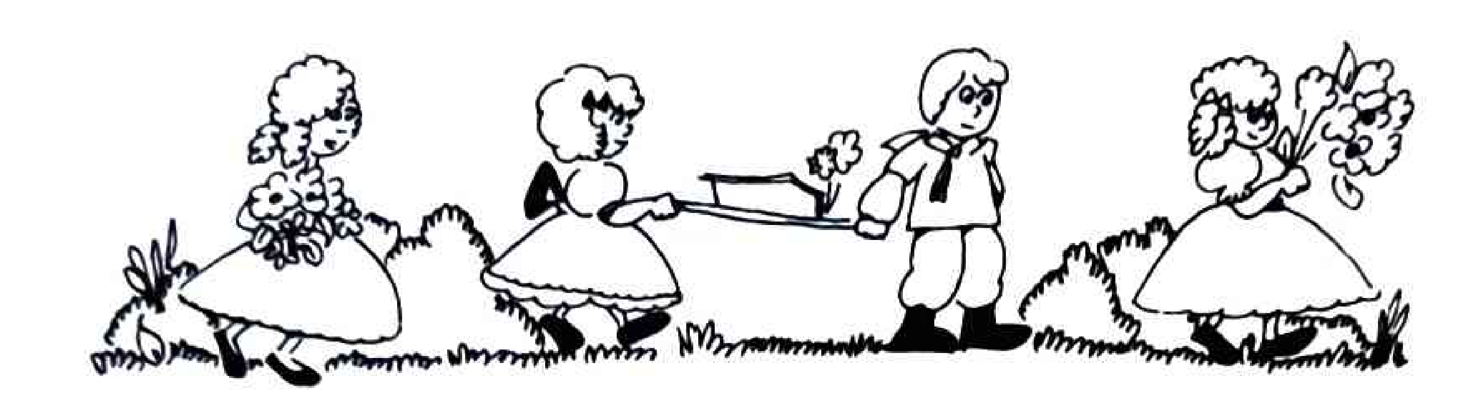
شحبتا فظهرت كأنها مريضة، وبقيت على الدوام بدون ألوان. فبكت صوفيا، لكن الدمية ظلت شاحبة.

في يوم اخر افتكرت صوفيا ان شعر دميتها يحتاج الى تجعيد فوضعت لها لفائف التجعيد وكوتها باداة التجعيد الحامية، فالتصق الشعر بالأداة الحامية جدًا واحترق شعر الدمية، فاصبحت صلعاء. وبكت صوفيا حزنًا واسفًا، لكن الدمية ظلت صلعاء. في يوم آخر أيضًا أرادت صوفيا وهي تحب ان تعلّم دميتها مسائل كثيرة وأن تدرّبها على بعض التمارين التي تزيد القوة. فعلّقت اليدين بخيط غليظ لٰكن الدمية التي لا تمسك بالخيط وقعت وانكسرت ذراعها. فحاولت الوالدة ان تصلحها، فسخّنت كمّية من الشمع غير أن الذراع ظلت أقصر من الاخرى. فبكت صوفيا لكن الذراع ظلت قصيرة.

في مرة اخرى ظنّت صوفيا ان غسل رجلي الدمية نافع لان الكبار يغسلون أرجلهم. فصبّت ماءً ساخنًا في سطل صغير وغطّست فيه رجلَي الدمية، وعندما

سحبتهما كانتا قد ذابتا وبقيتا في الماء. فبكت صوفيا، لكن الدمية ظلت بدون رجلين.

ومنذ تلك المشاكل لم تعد صوفيا تحب دميتها التي اصبحت بشعة وصارت صاحباتها يسخرن منها. أخيرًا أرادت صوفيا ذات يوم أن تعلّمها تسلُّق الاشجار، فأصعدتها الى غصن وأجلستها عليه. لكن الدمية التي لا تجلس جيدًا سقطت واصطدم رأسها بحجر كبير، فانكسر الرأس وتفتّت مئة قطعة. فبكت صوفيا ثم دعت صاحباتها الى دفن دميتها.



٢

الجنازة

وصلت كميليا ومدلين صباحًا لدفن الدمية. وكانتا مسرورتين.

أما صوفيا وبولس فكانا أقل فرحًا من الصديقتين.

صوفيا: - تعالوا سريعًا يا أصحابي لنضع الدمية في النعش.

كميليا: - ولكن أين النعش؟

صوفيا: - عندي علبة قديمة للمجوهرات بطّنتها خادمتي بنسيج وردي اللون، جميل جدًا، تعالوا تعالوا وانظروا.

فأسرع الصغار الى حيث كانت الخادمة تخيط الوسادة والفراش لوضعهما في العلبة. فتأمل الاولاد هذا النعش البديع باعجاب ووضعوا الدمية فيه. ولكي لا يظهر الرأس المحطّم والرجلان الناقصتان والذراع المكسورة، غطّوها بشرشف من نسيج التفْتا بلون الورد.

وضعت العلبة على محمل صنعته الوالدة. وأراد الجميع أن يحملوه. لكن ذلك كان مستحيلًا لان المكان لا يتّسع الّا لاثنين فقط. وبعد أن تزاحموا قليلًا وتشاجروا قرّ الرأي ان تحمل صوفيا المحمل بمساعدة بولس لانهما الاصغر سنًّا، على ان تمشي كميليا ومدلين وراءهما الواحدة تلو الاخرى، وهما حاملتان سلّة أزهار وأوراق خضراء لرشّها فوق القبر.

عندما وصل الموكب الى جنينة صوفيا الصغيرة، وُضع المحمل على الارض مع العلبة المحتوية على بقايا الدمية التعيسة. وراح الاولاد يحفرون القبر. ثم أنزلوا النعش اليه ورشّوه بالازهار والاوراق، واعادوا التراب الذي اخرجوه.

أخيرا مهّدوا الارض بعجلة، وزرعوا فيها نبتتين من الريحان. وفي ختام الحفلة أسرعوا إلى بركة الماء وملأوا مرشّاتهم الصغيرة وسقوا النبتتين. وهكذا وجدوا فرصة لألعاب جديدة ولضحكات عريضة. فبلّلوا أرجلهم وتلاحقوا وهربوا مقهقهين وضجّوا مرحين وهكذا تم دفن ليس اكثر منه فرحًا. لان الميت دمية قديمة لم يبقَ لها لون ولا شعر ولا رجلان ولا رأس ولم يعد أحد يحبّها أو يأسف عليها. وانتهى النهار بسرور. وعندما انصرفت كميليا ومدلين سألتا بولس وصوفيا ان يكسرا دمية أخرى لكي يقوموا مرة اخرى بدفن يسلّي كثيرًا.



٣

الكلس

لم تكن صوفيا الصغيرة طائعة. فمنعتها أمها عن الذهاب وحدها الى فسحة الدار حيث كان البنّاؤن يعمّرون زريبة للدجاج وللطاووس وديوك الحبش. وكانت صوفيا تحب كثيرًا أن تشاهد البنّائين وهم يشتغلون. وحين كانت أمها تذهب الى هناك كانت تأخذها دائمًا معها، وتوصيها بأن تظل الى جانبها. فسألتها يومًا ابنتها التي تحب أن تركض يمينًا ويسارًا قائلة:

صوفيا: - لماذا يا ماما لا تريدين أن أذهب وحدي لمشاهدة البنّائين؟ وحين أذهب معك لماذا تريدين أن أبقى

دائمًا بقربك؟

الام: - لأن البنّائين يرمون الحجارة والقرميد بدون ان ينتبهوا لوجودك، وقد يصيبونك. ثم لأن هناك كثيرًا من الرمل والكلس قد يسبّب لك الانزلاق والأذى.

صوفيا: - يا ماما، أوّلًا انا انتبه جيدًا، ثم لن يصيبني الرمل والكلس بأيّ ضرر.

الام: - انتِ تعتقدين ذلك لانكِ طفلة صغيرة. امّا أنا فبما اني كبيرة، أعرف ان الكلس يحرق.

صوفيا: - لكن ، يا ماما...

الام (تقاطعها) - هيا لا تحتجّي كثيرًا واسكتي. أنا أعرف أكثر منك إن كان ذلك يؤذيك أو لا. أنا لا أريدك ان تذهبي الى فسحة الدار بدوني. فخفضت صوفيا رأسها ولم تقلْ كلمة واحدة. لكنها عبست وتمتمت بصوت خافت:

صوفيا: - مع ذلك سأذهب وحدي، هذا يسلّيني.

نعم سأذهب.

ولم تنتظر طويلًا فرصةً كي لا تطيع امها. اذ بعد ساعة جاء البستاني يأخذ السيدة دريان لاختيار بعض نبتات معروضة للبيع. فبقيت صوفيا وحدها. تطلّعت الى كل الجهات لترى ما اذا كانت الخادمة او الوصيفة تستطيع رؤيتها، واذ تأكد لها أنها وحيدة أسرعت الى الباب ففتحته ومضت الى فسحة الدار حيث كان البنّاؤون يشتغلون ولا يفكّرون بصوفيا التي تتسلّى بمشاهدتهم، وتتفحّص كل ما يقع تحت نظرها. كانت واقفة بقرب حوض كلس ملآن، أبيض ومالس كالقشطة. فقالت: كم هذا الكلس أبيض وجميل! لم أبصره جيدًا من قبل، وأمي لا تتركني أقترب منه أبدًا. سأجتاز كل الحوض، وانا انزلق عليه كأنه من جليد.

ووضعت صوفيا رجلها على الكلْس معتقدة أنه جامد كالارض الصلبة. لكن رِجْلها غطست. ولكي لا تقع وضعت الرِّجْل الثانية. وهكذا غطست صوفيا حتى

نصف ساقيها. فصرخت وأسرع أحد البنّائين، ورفعها ووضعها على الارض قائلًا لها: «إخلعي حالًا حذاءك وجواربكِ يا آنسة. لانها قد احترقت. واذا ظلّت على جسمك فالكلس يحرق لك ساقيك.»

نظرت صوفيا إلى فخذيها، ورغم الكلس الذي لا يزال عالقًا بهما رأت أن حذاءها وجواربها قد اسودّت كأنها منتشلة من النار. فصرخت بصوت عالٍ، لا سيما عندما بدأت تشعر بعقْص الكلس الذي أخذ يحرقها. ومن حسن حظّها لم تكن الخادمة بعيدة عنها فأسرعت اليها وشاهدت ما جرى. فانتزعت حالًا حذاء صوفيا وجواربها، ومسحت لها رجليها وساقيها بمريولها وضمّتها الى صدرها وحملتها الى البيت. وعندما نقلت صوفيا الى غرفتها كانت السيدة دريان عائدة بعد أن دفعت ثمن الزهور للبائع.

فسألت الأم بقلق: ماذا جرى؟ هل تضرّرتِ؟ ولماذ أنتِ حافية القدمين؟ فلم تجاوب صوفيا لشدة خجلها...

فقصّت الخادمة على الأم ما جرى وكيف كادت صوفيا ان تحرق ساقيها في الكلس.

الخادمة: - لو لم أكن قريبة من فسحة الدار، ولو لم أصل في الوقت المناسب، لكانت أحرقت ساقيها كما هو حال مريولي. أنظري يا سيدتي، كيف أحرقه الكلس، فهو مليء بالثقوب.

رأتالى حفيدتي اليزابيت فراسْنو

عزيزتي تقولين لي غالبًا: «آه يا جدتي كم أحبك. انت طيبة القلب كثيرًا». ان جدتك لم تكن دائمًا طيبة القلب. وهناك اولاد عديدون كانوا أردياء مثلها واصلحوا ذواتهم نظيرها. هذه قصص واقعية جرت لفتاة صغيرة عرفتْها جدّتك. كانت طامعة شرهة، فأمست قانعة. كانت كاذبة فغدت صادقة. كانت سارقة فاصبحت أمينة. اخيرًا كانت لئيمة فباتت كريمة شهمة . وقد حاولت جدّتك أن تحذو حذوها. فتشبّهوا أنتم بها، يا اعزائي الصغار. وسيسهُل هذا عليكم لانكم لا تحوون

جميع نقائص صوفيا.

السيدة دريان مريول الخادمة وقد تَلِف. فالْتفتت نحو صوفيا وقالت لها:

الام: – يا آنسة، كان عليّ أن اضربك لعدم طاعتك. لكن الله قاصصك بما أصابك من الخوف والألم. سيكون قصاصك أيضًا أن تعطي الخادمة نقودًا لأشتري لها مريولًا جديدًا، أي قطعة الفرنكات الخمسة التي تخبّئينها في محفظتك لكي تصرفيها على تسلياتك يوم العيد في ساحة القرية. فبكت صوفيا بكاءً مرًا وطلبت من أمها ان تعفيها من دفع الفرنكات الخمسة، ولكن بدون فائدة. فقد أخذتها منها. ووعدت صوفيا والدتها وهي تبكي بأن تطيعها من الآن وصاعدًا ، وبأن لا تمضي الى حيث كان عليها ان لا تذهب.

٤

الاسماك الصغيرة

كانت صوفيا طائشة، تتصرف غالبًا بطريقة سخيفة وبدون أيّ تفكير. وهذا ما حدث لها ذات يوم.

كان لوالدتها أسماك صغيرة لا يتعدّى طولها الدبوس، ولا حجمها ضلع ريشة الحمام. وكانت السيدة دريان تحب كثيرًا تلك الاسماك الصغيرة التي تعيش في حوض ماء، أرضه مفروشة بالرمل والاحجار لكي تتمكن الاسماك من التغلغل والاختباء فيها. كل صباح كانت السيدة دريان تحمل فُتات الخبز الى هذه الاسماك الحلوة وتتسلّى صوفيا بمشاهدتها وهي تهجم على الفُتات

وتتزاحم لالتقاطه.

في احد الايام أهداها والدها سكّينًا صغيرًا جميلًا قبضته مصنوعة من ظهر السلحفاة. فراحت تستعمله صوفيا لتقطيع الخبز والبطاطا والبسكوت والازهار أيضًا. وبينما كانت الفتاة تلعب وكانت خادمتها قد أعطتها رغيفًا من الخبز قسمته لها الى قطع صغيرة، ولوزًا قسمته الى شرائح وبعض أوراق الخس. طلبت من خادمتها زيتًا وخلًا لتتبيل السلطة.

فأجابتها الخادمة: كلا. سأعطيك ملحًا ولكن بدون زيت ولا خل، كي لا تبقّعي ملابسك.

أخذت صوفيا الملح، ورشّت قليلًا على السلطة، وبقي لديها منه الكثير. فقالت: لو كان عندي شيء آخر لملّحته. أنا لا أريد تمليح الخبز طبعًا، بل اللحم والسمك. ها قد مرّت ببالي فكرة. سأملّح أسماك أمي. فأقطّع بعضها شرائح بسكّيني، وأملّح ما تبقّى. وهكذا أتسلّى كثيرًا.

وها هي صوفيا بدون ان تفكر بأن أمها ستخسر أسماكها التي تحبها كثيرًا، وبأن الاسماك الصغيرة المسكينة ستتألّم كثيرًا بسبب تمليحها وهي حيّة وتقسيمها الى شرائح. قد اسرعت الى القاعة حيث توجد الأسماك الصّغيرة واقتربت من الحوض واصطادتها جميعها، وجاءت بصحن من صحونها، وعادت الى مائدتها الصغيرة واخذت بعض تلك الاسماك الصغيرة المسكينة ورتّبتها في الصحن. لكن الاسماك التي لا تعيش خارج الماء اخذت تتحرّك وتقفز بقدر ما تستطيع. ولكي تجعلها تهدأ رشّت ملحًا على ظهرها ورأسها وذنبها. وبعد وقت قصير أصبحت الاسماك الصغيرة جامدة بلا حراك لأنها ماتت. وحالما امتلأ صحنها جلبت غيره، وأخذت أسماكًا اخرى، وراحت تقطّعها شرائح. ومن اوّل ضربة سكّين، كانت الاسماك التعيسة تتلوّى من الالم وتجمد حالًا بدون حراك لأنها تكون قد ماتت. بعد السمكة الثانية، لاحظت صوفيا أنها تقتلها بتقسيمها قطعًا صغيرة.

فنظرت بقلق الى الاسماك المملّحة، وإذْ رأتها لا تتحرّك تفحّصتها بانتباه ورأت أنها ماتت بأجمعها. فاحمرّ وجه صوفيا وصار بلون الكرز.

وتساءلت: ماذا ستقول لي أمّي؟ وماذا سيحلّ بي أنا التعيسة. ما العمل لإخفاء هذا؟

ففكرت لحظة وأشرق وجهها إذْ وجدت طريقة ممتازة لكي لا تدع والدتها تلاحظ هذه النتيجة.

لململمت بسرعة جميع الاسماك المملّحة والمقطّعة ووضعتها في صحن صغير وخرجت من الغرفة بهدوء وأرجعتها الى حوضها. وقالت: ستظن أمي انها تشاجرت فيما بينها، فمزّق بعضها بعضًا وماتت جميعها. سأمسح صحوني وسكّيني وأرمي ما بقي من الملح. ومن حسن حظي لم تلاحظ خادمتي أني جلبت الاسماك من الحوض، فهي منشغلة بعملها لا تنتبه لما أفعل. ثم دخلت صوفيا الى غرفتها بدون ضجة، وجلست الى طاولتها وأكملت لعبتها بأدوات مطبخها. بعد برهة نهضت

وأخذت كتابًا وراحت تنظر الى صوره. غير أنها كانت قلقة ولا تبصر الصور لأنها كانت لدى كل حركة تسمعها تظن أنها وقْع اقدام والدتها تقترب. فجأةً ارتعشت صوفيا واحمرّ وجهها إذْ سمعت فعلًا صوت امّها تنادي أحد الخدم: وسمعتها تتكلم بصوت عال غاضبة كأنها توبّخ أحدًا، والخدام يذهبون ويرجعون. فارتجفت صوفيا إذْ افتكرت أن امّها ستنادي خادمتها أيضًا وتناديها هي بالذات. لكن الهدوء عاد وخيم ولم تسمع بعد ذلك أيّ صوت.

أمّا الخادمة التي سمعت الضجة هي أيضًا والتي كانت فضولية فتركت عملها وخرجت. ثم دخلت بعد مرور ربع ساعة، وقالت لصوفيا: ما أسعدنا نحن الاثنتين لانتا كنا كلتانا في غرفنا، ولم نخرج منها. تصوّري ان والدتك ذهبت لترى اسماكها ووجدتها كلها ميتة، منها كاملة كما هي، ومنها مقسّمة الى قطع صغيرة : فنادت جميع الخدم لتسألهم من هو الشرير الذي سبّب الموت

لهذه الحيوانات الصغيرة المسكينة. فلم يستطع أحد أن يجيبها أو يقول كلمة في هذا الموضوع. ولقد صادفتُها الان وسألتْني إن كنتِ أنتِ قد دخلتِ الى القاعة. ولحسن الحظ استطعت ان اؤكّد لها انك لم تتركي هذا المكان وأنك تسلّيتِ في تحضير الطعام بأدوات مطبخك الصغير. فقالت: هذا أمر غريب. كنت على يقين بأن صوفيا تفعل مثل هذا العمل المؤذي القبيح. وقالت أمك: حسنًا وإلّا كنتُ فرضتُ عليها قصاصًا قاسيًا. من حسن حظها أنها لم تخرج من غرفتها، كما تؤكّدين لي الآن، وانها لم تسبّب الموت لأسماكي المسكينة. فأجابتها في هذا الموضوع : انا واثقة كل الثقة، يا سيدتي.

لم تجب صوفيا بكلمة. وبقيت جامدة محمرّة الوجه، منخفضة الرأس والدموع تملأ عينيها. لقد عزّ على بالها لحظة ان تبوح لخادمتها بأنها هي التي صنعت كل ذلك. لكن الشجاعة خانتها. واذ رأتها الخادمة حزينة ظنت أن موت الاسماك الصغيرة المسكينة هو الذي ضايقها. فقالت:

الخادمة: - كنت واثقة بأنك ستحزنين مثل والدتك لهذه المصيبة التي حلّت بهذه الحيوانات الصغيرة المسكينة. لكن لا بد من القول ان هذه الاسماك لم تكن سعيدة في سجنها. لان هذا الحوض في الواقع كان سجنًا يحجز حريتها. والان قد ماتت فلم تعد تتألم. لا تشغلي بالك بها اذًا بعد الآن. وتعالي أُرتّبك لنذهب الى القاعة. وبعد قليل من الوقت نتغدّى.

فتركت صوفيا خادمتها تسرّح لها شعرها وتغسل لها وجهها ويديها ورجليها بدون ان تعارض بكلمة. وحين دخلت القاعة رأتها والدتها، فقالت لها:

الام: - هل اخبرتْك خادمتك بما حدث لأسماكي الصغيرة؟

صوفيا: - نعم، يا ماما.

الام: - لو لم تؤكّد لي خادمتك أنك بقيتِ معها في غرفتك منذ أن تركتِني لكنتُ ظننت انك انتِ التي

سبّبت لها الموت. لان جميع الخدام صرّحوا أن لا أحد منهم فعل ذلك. لكني أعتقد ان الخادم سمعان المكلّف بتغيير الماء والرمل في الحوض كل صباح أراد ان يتخلّص من هذا التعب فقتل أسماكي المسكينة، لكي لا يعود الى الاعتناء بها. لذلك سأطرده غدًا.

صوفيا (خائفة): - يا ماما مسكين هذا الرجل. ماذا سيحلّ به وبزوجته وأولاده؟

الام: - يجب أن يتدبّر أمره. كان عليه أن لا يقتل اسماكي الصغيرة التي لم تسئ اليه ابدًا، والتي عذّبها وقسّمها الى قطع صغيرة.

صوفيا: - لكن ليس هو يا ماما. أنا أؤكد لك، ليس هو.

الام: - كيف تعلمين أنه ليس هو؟ أنا أعتقد انه هو بالذات وأن ليس غيره. ومنذ الغد سأطلب منه ان يتركنا ويرحل.

صوفيا (باكية وهي تضمّ يديها الواحدة الى الأخرى)
- لا يا ماما لا تفعلي هٰذا.

فأنا اخذت الاسماك الصغيرة وقتلتها.

الام (مدهوشة): - أنتِ؟ ما هذا الجنون؟ انتِ تحبّين هذه الاسماك الصغيرة ومن غير المعقول أن تكوني قد عذّبتها وسبّبت لها الموت. أرى جيدًا أنك تقولين ذلك لتعذري سمعان وتحميه.

صوفيا: - لا يا ماما. أؤكّد لك أني أنا، نعم انا. لم أرد ان أقتلها، بل أحببت فقط ان أملّحها. وانا أظن أن الملح لا يؤذيها. لم افتكر أبدًا بأن تقسيمها يوجعها لأنها لم تصرخ. انما عندما رأيتها ميتة أرجعتها الى الحوض بدون ان تراني خادمتي التي كانت مشغولة عندما خرجتُ ودخلتْ.

ظلّت السيدة دريان لحظة مدهوشة لدى سماعها تصريح صوفيا، ولم تردّ عليها. فرفعت الابنة عينيها بخجل ورأت عيني أمها متّجهتين اليها لكن بدون

غضب ولا قساوة.

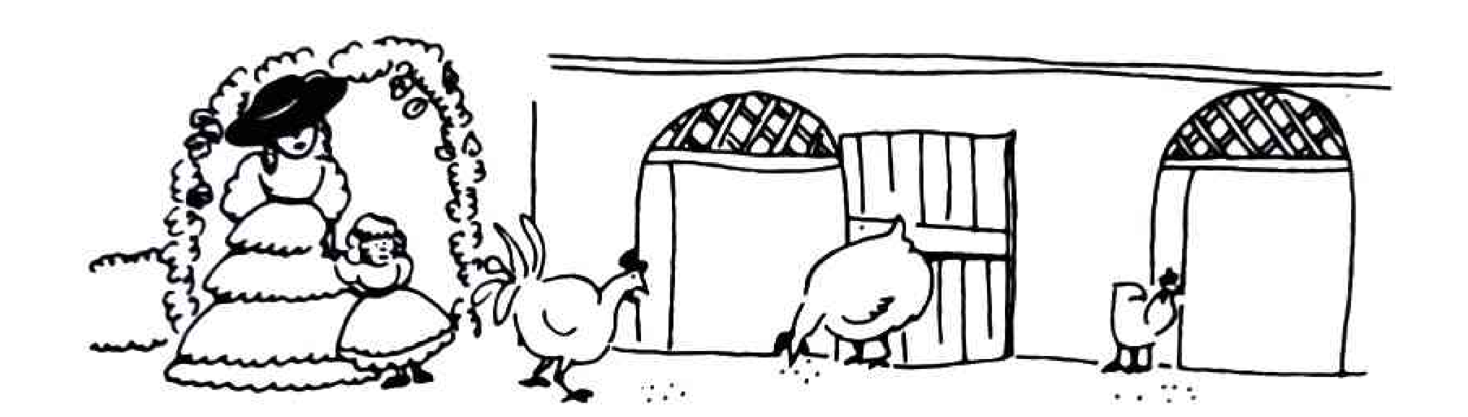
أخيرًا قالت:

الام: - لو علمتُ صدفة يا صوفيا، بسماح من الله الذي يعاقب الأشرار دائمًا، ما أخبرتِني به الآن لكنتُ قاصصتك بقساوة وبدون أدنى شفقة. لكن عاطفتك الصالحة دفعتك الى الاعتراف بذنبك لرفْع التهمة عن سمعان، تشفع بك وتجعلك تستحقين العفو. لن ألومك لاني واثقة بأنك تحسّين الآن بما ذاقت هذه الاسماك الصغيرة المسكينة من العذاب بسبب عدم تفكيرك بأن الملح سيقتلها، ثم انّ تقسيم الاسماك وقتلها سيوجعها كثيرًا.

واذ رأت والدتها أنها تبكي أضافت قائلة:

الام: - لا تبكي يا صوفيا، ولا تنسي أن تقرّي دائمًا بذنبك لأن الاعتراف بالذنب يستحقّ العفو والمسامحة.

فمسحت صوفيا عينيها وشكرت والدتها. لكنها ظلت طوال النهار حزينة قليلًا لأنّها سبّبت الموت لأسماك صغيرة صديقة.



٥

الصوص الأسْود

كانت صوفيا تذهب كل صباح مع امها الى زريبة الدجاج حيث يوجد منه أصناف عديدة وجميلة جدًا. وكانت السيدة دريان قد تركت دجاجة تحضن عددًا من البيض لكي يفقس فراخًا صغيرة رائعة. وكانت تذهب كل يوم برفقة صوفيا لترى إن كانت الفراخ قد خرجت من البيض. وكانت صوفيا تأخذ في سلّتها خبزًا تفتّته للدجاج. وحالما تصل تحوم جميع الدجاجات حولها وتلتقط الخبز تقريبًا من يدها ومن سلّتها فتضحك صوفيا مسرورة وتركض والدجاجات تتبعها. وهذا ما كان

يسلّيها كثيرًا.

في هذا الوقت كانت امها تدخل الى ممرّ كبير مكشوف حيث تعيش الدجاجات بحرية كأنها أميرات وتلاقي عناية أفضل من عدد كبير من الاميرات التعيسات. وبعد ان تنقد خبزها المفتَّت كانت تعود الى جانب والدتها، وتنظر الى الفراخ الصغيرة تخرج من قشرة البيضة وهي صغيرة جدًّا لكي تركض في الحقول. ذات صباح حينما دخلت صوفيا زريبة الدجاج رأت امها تمسك بفرخ رائع خرج من البيضة منذ ساعة.

صوفيا: – ما أجمل هذا الصوص يا ماما! ريشه اسود مثل ريش الغراب.

الام: – أنظري أيضًا ما أجمل العُرْف الأحمر الذي يزين رأسه. سيكون صوصًا رائعًا. واعادته السيدة دريان الى قرب جناح الدجاجة الحاضنة. وما كادت تضعه على الارض حتى نقرت الدجاجة الكبيرة بمنقارها الفرخ المسكين. فضربت السيدة دريان الدجاجة الشريرة ضربة

خفيفة على منقارها ورفعت الصوص الصغير الذي وقع وهو يصيح ثم وضعته مجدّدًا قرب الدجاجة الام. في هذه المرة نقدت الدجاجة الغاضبة الفرخ المسكين مرتين أو ثلاث مرات بمنقارها وطردته عندما اراد الرجوع اليها. فسارعت السيدة دريان والتقطت الفرخ الذي كادت الدجاجة الكبيرة ان تقتله بقساوة بضربات منقارها. فسقته قطرة ماء لإنعاشه، وسألت:

الام: - ماذا يمكننا ان نفعلِ بهذا الصوص؟ مستحيل ان نتركه مع هذه الأمّ الشريرة، لانها ستقتله. وهو جميل وأحبُّ ان أربّيه.

صوفيا: - اسمعي يا ماما. ضعيه في سلّة كبيرة داخل الغرفة التي تحتوي ألعابي، وسنطعمه. وعندما يكبر نعيده الى قنّ الدجاج.

الام: - اعتقد ان الحق معك. إحمليه في سلّتك وسنرتّب له مكانًا لينام فيه.

صوفيا: - انظري يا ماما الى عنقه فالدم يسيل منه وكذلك من ظهره.

الام: - هذا سببه ضربات منقار الدجاجة الكبيرة. فعندما تأخذينه الى البيت، تطلبين من خادمتك مرهمًا لتدهني به جروحه.

لم تكن صوفيا مسرورة لرؤية جراح هذا الصوص. لكنها كانت مسرورة بأن تضع له المرهم. فسبقت والدتها وأرت الفرخ خادمتها وطلبت منها المرهم، ووضعت منه كمّية على مكان ينزف دمًا. ثم أحضرت له بيضة مسلوقة وخبزًا وحليبًا. فسحقتها ومزجتها وقدّمتها له. وكان الصوص حزينًا وهو يتألم. ولم يرد أن يأكل بل شرب فقط عدّة مرات ماءً نظيفًا باردًا.

بعد ثلاثة أيام شفيت جروح الصوص، فراح يتنزه في الجنينة امام مدخل البيت. وبعد شهر كان قد نما قليلًا واصبح جماله رائعًا، وظهر اكبر من سنّه، كأن عمره ثلاثة أشهر. وكان ريشه اسود اللون نادرًا جدًّا، أملس

وبرّاقًا كأنه خارج من الاغتسال بالماء. وكانت على رأسه مجموعة من الريش الناعم غامقة اللون تخالطها ريشات برتقالية وزرقاء وحمراء وبيضاء. وكان منقاره وقائمتاه بلون الورد، ومِشْيته متفاخرة، وعيناه حيويّتين وبرّاقتين عندما يتنزه امام البيت.

بعد ايام كان سيؤخذ الى قنّ الدجاج لأن مراقبته أصبحت صعبة. اذ كانت صوفيا تضطر أحيانًا الى الركض وراءه مدة نصف ساعة بدون أن تتوصّل الى الامساك به. حتى انه ذات مرة كاد أن يغرق، حين سقط في بركة مملوءة ماءً لم يبصرها بسبب سرعته في الهرب من صوفيا. ولقد جرّبت أن تربط قائمته بشريط لكنه تخبّط كثيرًا حتى فكّته خوفًا من ان يكسر فخذه. فمنعتها أمها من اخراجه بعد ذلك من القنّ، وقالت لها:

الام: - هنا يوجد عدد كبير من الصقور التي تختطفه. لذلك يجب الانتظار حتى يكبر ليُترك حرًّا طليقًا.

أمّا صوفيا التي لم تكن طائعة فظلت تخرجه خفية عن امها. ذات يوم علمت بأن والدتها منشغلة بالكتابة، فجاءت بالصوص الى امام البيت. فراح يتسلّى باللحاق بالذباب والدود المتغلغل في الرمل والعشب. وكانت صوفيا تسرّح شعر دميتها على بعد خطوات من الصوص الذي تراقبه غالبًا لتمنعه من الابتعاد عنها. واذ رفعت عينيها الى فوق رأت بدهشة طائرًا كبيرًا معقوف المنقار قد حطّ على بعد ثلاث خطوات من الصوص وهو ينظر اليه بغدْر والى صوفيا بخوف. فلم يتحرك الصوص، بل تكوّم ورجف. فصاحت:

صوفيا: - ما هذا العصفور الغريب؟ هو جميل، لكن منظره مخيف. عندما ينظر اليّ يظهر عليه الفزع، وحين ينظر الى الصوص يُرعبه بعيونه الغاضبة. ها ها ها، ما أغربه!

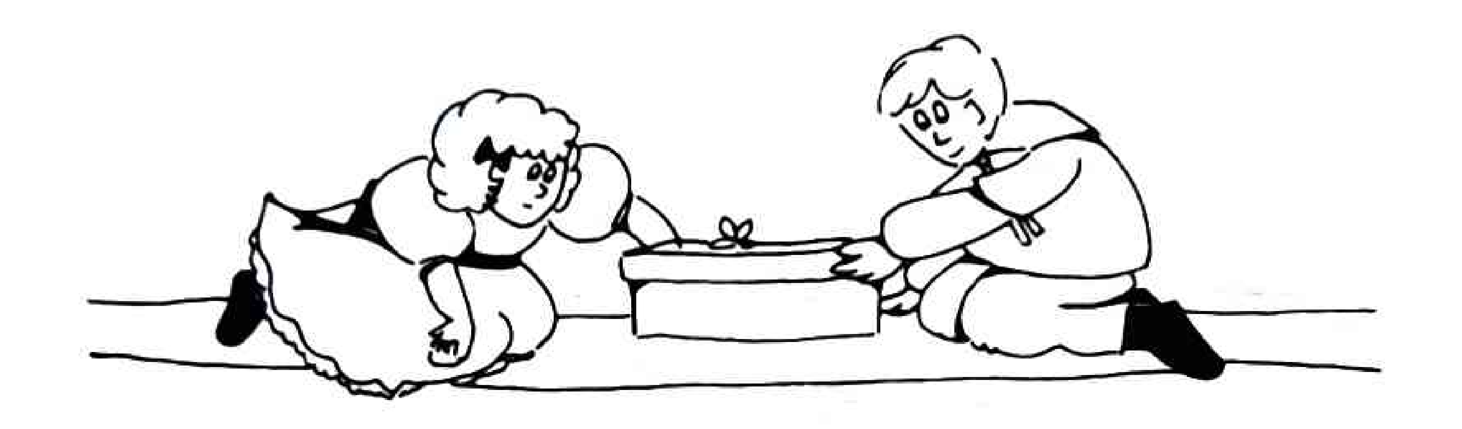
في تلك اللحظة أطلق الطائر صيحة حادّة وحشية، وهجم على الصوص الذي جاوبه بصوت مرتجف،

فأمسكه بأظافره وحمله وطار به في الجو بصفقة جناح. ظلت صوفيا جامدة مدهوشة. فأسرعت الأمّ على صوت الطائر وسألت صوفيا عمّا جرى. فروت الفتاة كيف حطّ الطائر وحمل الصوص بدون ان تفهم معنى ذلك. فشرحت لها:

الام: - معنى ذلك انك فتاة غير طائعة وأن الطائر الشرس صقر شرّير، وأنك تركته يخطف صوصي الجميل ويقتله ويأكله، وأنك ستعودين الى غرفتك حيث تتعشّين وتبقين وحدك طوال السهرة لكي تتعلّمي مرة ثانية ان تطيعي ما أوصيك به.

فخفضت صوفيا رأسها وذهبت حزينة الى غرفتها حيث تناولت الحساء وقطْعة اللحم التي حملتها اليها خادمتها وهي تبكي لأنها تحبها ولا تريد أن تراها دامعة العين اذ إن صوفيا تبكي لفقد الصوص الصغير الذي اسفت طويلًا على موته.





٦

النحلة

كانت صوفيا وابن خالتها بولس يلعبان يومًا في غرفتها. وكانا يتسلّيان بالْتقاط الذباب المتطاير على زجاج النافذة. وكانا كلما امسك احدهما بذبابة يضعها في علبة من الكرتون صنعها لهما والدها.

فعندما أمسكا بالكثير من الذباب أراد بولس ان يرى الكمية المحبوسة في العلبة. فقال لصوفيا الممسكة بالعلبة:

بولس: - أعطني هذه العلبة لأرى كم صار في داخلها من الذباب.

فناولته إيّاها صوفيا. وفتح بولس غطاء العلبة بكثير من

الحذر. ثم وضع عينه على فتحتها وصاح:

بولس: – ما أغرب حركاتها الدائمة. انها تتصارع. هذه ذبابة تنتزع رجل رفيقتها، وباقي الذبابات غاضبات. ما هذا القتال؟ ها ان بعضها يسقط ثم ينهض. فقالت:

صوفيا: – دعني أنظر بدوري يا بولس.

فلم يردّ عليها ابن خالتها. وظل ينظر ويروي م يشاهده. ففرغ صبر صوفيا وأمسكت بطرف العلبة وشدّتها بلطف. وشدّ بولس من جهته، فأغضب صوفيا التي شدّت بقوة أكثر. فما كان من بولس إلّا ان شدّ بكل قوته وتمسّكت صوفيا بالعلبة حتى مزّقاها. حينئذ طارت الذبابات جميعها الى خارج العلبة وحامت على عيونهما وعلى خدودهما ثم على أنفي بولس وصوفيا اللذين كانا يطردانها بضربات قويّة. فصاحت:

صوفيا: – الذنب ذنبك يا بولس، لو كنت فقلت له: مسايرًا لكنت أعطيتني العلبة، وما كنّا مزّقناها.

بولس: – كلّا الذنب ذنبك انت. لو كنتِ أطول بالًا لكنت انتظرت حتى أعطيك العلبة واحتفظنا بها سليمة، وما تضايقنا من الذباب.

صوفيا: – انتَ أناني، لا تفكّر الّا بنفسك.

بولس: – وانتِ غاضبة تظير ديوك الحبش الموجودة في المزرعة.

صوفيا: – انا لست غاضبة أبدًا يا استاذ. لكنّي أجدك شرّيرًا.

بولس: – انا لست شرّيرًا يا آنسة. فقط أقول الحقيقة، ولذلك احمرّ وجهك من شدة الغضب مثل ديوك الحبش حين تُدلّي عرفها الأحمر.

صوفيا: – لا أريد ان ألْعب بعد الآن مع صبي خبيث مثلكَ يا استاذ.

بولس: – وانا كذلك لا أريد ان ألْعب مع فتاة حمقاء مثلكِ يا آنسة.

وكل واحد منهما حرد من جهته في زاوية. فضجرت صوفيا سريعًا. لكنها قصدت أن توهم بولس انها تتسلّى كثيرًا. فراحت تغنّي وتلتقط مزيدًا من الذباب. انما كان هناك عدد كبير منه وما بقي كان الْتقاطه صعبًا لسرعة تحرّكه. فجأةً لمحتْ نحلة كبيرة كانت واقفة هادئة في احدى زوايا النافذة. كانت صوفيا تعرف ان النحل يعقص لذلك حاولت أن لا تلمسها بأصابعها. فسحبت منديلها من جيبها ووضعته على النحلة والتقطتها به قبل أن تطير وتهرب.

امّا بولس الذي كان يضجر من جهته أيضًا، فراقب صوفيا ورآها تلتقط النحلة فسألها:

بولس: - ماذا تنوين ان تفعلي بهذه الحشرة.

صوفيا (بخشونة): - دعني وشأني، يا لئيم. هذا لا يعنيك.

بولس (بسخرية): - العفو ايتها الانسة الغاضبة. أطلب منكِ السماح لأني كلّمتك ونسيت انك فتاة غير

مهذّبة ووقحة.

صوفيا (تقوم بحركة استهزاء): - سأقول لأمّي يا استاذ، انك تجدني غير مهذبة، وبما انها هي التي ربّتني فيسرها كثيرًا أن تعرف ذلك.

بولس: - لا يا صوفيا لا تخبريها. ستلومني وتوبّخني.

صوفيا: - نعم سأخبرها. واذا وبّختك فذلك أفضل ويسرّني كثيرًا.

بولس: - يا لكِ من حمقاء. انا لا اريد أن أكلمكِ بعد الآن.

وأدار بولس كرسيه لكي لا يرى صوفيا التي أفرحها ان تخيف ابن خالتها والتي عادت الى الاهتمام بنحلتها. فرفعت بلطف زاوية منديلها وضغطت قليلًا على النحلة بأصبعها من خلال المنديل لتمنعها من الطيران، ثم سحبت من جيبها سكينها الصغير وقالت:

صوفيا: - سأقطع رأسها لمقاصصتها على كل

العقصات التي قامت بها.

في الواقع وضعت صوفيا النحلة على الارض وهي تمسك بها من خلال المنديل وبضربة سكّين قطعت لها رأسها. وبما انها وجدت ذلك مسلّيا تابعت تقسيمها الى عدّة قطع. وكانت منشغلة بالنحلة الى درجة انها لم تسمع أمها التي دخلت ورأتها راكعة شبه جامدة. فاقتربت منها على مهل لترى ماذا تفعل. فشاهدتها تقطع آخر قائمة (رِجْل) من جسم النحلة المسكينة.

فغاظت الأم قساوة ابنتها صوفيا. وما كان من السيدة دريان إلّا أن شدّت أذن ابنتها بقوّة.

فأفلتت من صوفيا صرخة ونهضت مبغوتة مرتبكة ووقفت مرتجفة امام والدتها.

الام: - انت فتاة شرّيرة يا آنسة، تعذّبين هذه الحشرة رغم كل ما أوصيتكِ به عندما ملّحتِ وقطّعتِ أسماكي الصغيرة المسكينة.

صوفيا: - أؤكد لك يا ماما اني نسيت.

الام: - سأدعك تتذكرين يا انسة، أوّلًا بحرمانك من سكّينكِ الذي لن أردّه لك قبل مرور سنة. ثم بإجبارك على حمْل قطع هذه النحلة في عنقك مربوطة بخيط حتى تجفّ وتتفتّت كالتراب.

توسلت صوفيا كثيرًا بدون فائدة الى امها لكي لا تعلّق لها في رقبتها هذا العقد من بقايا النحلة. ولم يجرؤ بولس على قول كلمة واحدة. لأنه كان جامدًا مدهوشًا. وعندما ظلّت صوفيا وحدها تبكي خجلًا من عقدها الغريب حاول بولس أن يعزّيها بجميع ما لديه من وسائل. فعانقها، وطلب منها العفو عما نعتها به من حماقات وأراد ان يقنعها بأن الالوان الصفراء والبرتقالية والزرقاء والسوداء التي تزيّن النحلة بديعة المنظر وتشبه عقدًا من الجاد أو سواها من الاحجار الكريمة. فشكرته صوفيا على طيبة قلبه، وتعزّت قليلًا بصداقة ابن خالتها. لكنها ظلّت حزينة بسبب أجزاء عقدها الى ان سحقها

بولس أخيرًا ذات يوم، وهو يلعب معها. فبقي الخيط وحده في عنقها. وذهب وأخبر بذلك خالته التي وعدته بأن تفكّ الخيط الاسود المذكور. وهكذا تخلّصت صوفيا منه ومنذ ذلك الحين لم تعد تُعذّب أيّ حيوان.

٧

الشعر المبلول

كانت صوفيا انيقة تحب ان ترتدي الملابس الحلوة، وان تظهر جميلة الخلقة، مع انها لم تكن جميلة. كان وجهها ضخمًا نضيرًا وكانت دائمًا مرحة. وكانت عيناها الجميلتان عسليّتين، وأنفها الكبير قليلًا شامخًا في الهواء، وفمها الواسع مستعدًّا على الدوام للضحك، وشعرها الاشقر غير مجعّد ومقصوصًا قصيرًا كالصبيان. كانت تحب ان تظل أنيقة وأن ترتدي أحلى الثياب وتفضّل اللون الابيض والعنق الواسع، والاكمام القصيرة صيفًا وشتاءً والجوارب السميكة والحذاء الجلدي الأسْود. لم

تكن تضع على رأسها قبعة ولا تلبس في يديها قفّازَيْن. ففكرت أمها بأن من الأفضل ان تعوّدها على الشمس والمطر والبرد والهواء.

وما كانت تحبّه صوفيا أيضًا هو أن يكون شعرها طويلًا ومجعَّدًا. ذات يوم سمعت من رفيقتها كميليا أنها معجبة بالشعر الجميل الاشقر المجعَّد ومنذ ذلك الحين حاولت أن تجعِّد شعرها. ومن جملة ما فكرت فيه للوصول الى غايتها كان الاختراع التعيس التالي.

ذات يوم بعد الظهر كان الجو ماطرًا بغزارة وكانت الحرارة مرتفعة جدًا الى درجة ان تركت النوافذ وأبواب الدار مفتوحة. وكانت صوفيا واقفة بالباب وقد منعتها أمها من الخروج. فراحت من وقت الى آخر تمدّ يدها لتبلّها بقطرات المطر ثم تمدّ عنقها لتتلقّى بعض قطرات على رأسها. وفيما هي تمدّ رأسها هكذا الى الخارج رأت ماء الميزاب يفيض ويتساقط منه شلال من مياه المطر، فتذكرت ان شعر كميليا يتجعّد بصورة أفضل حين

يكون مبلولًا، فقالت:

صوفيا: - اذا بلّلت شعري لربّما يتجعّد.

واذا بصوفيا تخرج رغم تساقط المطر وتضع رأسها تحت الميزاب والماء يتدفّق منه فتتلقّى بسرور شلّال مياه المطر على رأسها وعنقها وذراعيها وظهرها.

فلما ابتلّت وسال الماء من ملابسها دخلت الى القاعة وراحت تمسح رأسها بمنديلها وتجرّب ان تلفّ شعرها لكي يتجعّد. فابتلّ المنديل حالًا. وارادت صوفيا ان تركض الى غرفتها لتطلب منديلًا آخر من خادمتها. واذا بها تصادف امها وجهًا لوجه والماء يسيل من شعرها المنتصب كأشواك القنفذ، وهي خائفة جامدة مرتجفة. فما كان من الوالدة التي وجدتها في هذا المنظر البشع إلّا أن قهقهت ضاحكة أوّلًا، ثم قالت لها:

الام: - ما احلى هذه الفكرة العظيمة التي مرت ببالك يا آنسة. اذا شاهدتِ هيئتك في المرآة ستضحكين حتمًا على نفسك، كما أراك الآن. لقد منعتك من

الخروج فلم تطيعيني حسب عادتك. وكقصاص ستبقين للعشاء كما انت وشعرك منتصب في الهواء، وثيابك تسيل ماءً، لكي يرى أبوك وابن خالتك بولس حُسْن تصرفك وبراعة اختراعك. ها هوذا منديل لتكملي مسح وجهك ورقبتك وذراعيك.

أنهت السيدة دريان كلامها في تلك اللحظة، ودخل بولس مع السيد دريان فوقف كلاهما مدهوشَيْن امام صوفيا المسكينة المحمرّة الوجه المستحية الآسفة الغبيّة. فقهقها ضاحكَيْن. وكانت صوفيا كلّما ازداد احمرارها وخفضت رأسها كلّما ازداد ارتباكها وحزْنها وازداد شعرها شناعة وثيابها المبلّلة بشاعة. أخيرًا سأل ابوها عمّا تعنيه هذه المهزلة، وعمّا اذا كانت ستتعشّى بهذا الزيّ السخيف.

السيدة دريان: - هذا بدون شك اختراع لتجعيد شعرها لأنها تتمسّك بتقليد كميليا التي تبلّ شعرها لكي تزيد تجعيده. فظنّت صوفيا أنها ستصبح مثلها اذا

تصرّفت هكذا.

السيد دريان: - وهكذا اضحت الفتاة انيقة. ولأنها تريد أن تكون جميلة، ها قد ازدادت قباحة.

بولس: - اذهبي يا صوفيا المسكينة وتنشّفي ثم سرّحي شعرك وغيّري ملابسك.

لو عرفتِ كم صرتِ مضحكة بهذا المنظر الغريب لما أردت ان تبقي دقيقَة واحدة كما أنتِ الآن!

السيدة دريان: - كلّا. ستتعشّى وشعرها منتصب في الهواء وملابسها مليئة بالرمل والماء.

بولس (مقاطعًا ومشْفقًا): - أرجوك يا خالتي، أن تسامحيها وأن تأذني لها بالذهاب لتسرّح شعرها وتبدّل ثيابها. مسكينة صوفيا، يظهر عليها أنها تعيسة حزينة.

السيد دريان: - انا مثل بولس أسألك يا عزيزتي أن تسامحيها هذه المرة. أمّا اذا أعادت الكرّة فلكِ ان تقاصصيها كما تشائين.

صوفيا (باكية): - اؤكد لك يا بابا أني لن أراجع ذلك أبدًا.

السيدة دريان: - إكرامًا لوالدك يا آنسة أسمح لك بالذهاب الى غرفتك لإبدال ملابسك. لكنك لن تتعشَّيْ معنا، ولن تعودي الى القاعة قبل أن نترك المائدة.

بولس: - اسمحي لها يا خالتي بأن تتعشّى معنا.

السيدة دريان: - كلاّ يا بولس، لا تسألني أكثر مما أذنتُ لها به. عليها أن تفعل كما قلتُ لها.

(لصوفيا): - هيا يا آنسة.

فتعشّت صوفيا في غرفتها، بعد أن سرّحت شعرها وغيّرت ثيابها. فجاء بولس يأخذها بعد العشاء ورافقها ليلعبا في القاعة حيث توجد الألعاب. ومنذ ذلك اليوم لم تجرّب صوفيا ان تضع قطرة واحدة من ماء المطر على شعرها لتجعيده.



٨

الحاجبان المقصوصان

شيء آخر كانت صوفيا ترغب فيه كثيرًا هو أن يكون لها حاجبان عريضان. فقد قيل أمامها يومًا إن لويزا الصغيرة تصبح جميلة إن صار لها حاجبان أعرض. اذ كان حاجبا صوفيا رفيعَيْن لانها كانت شقراء ولم يكونا بارزَيْن. وقد سمعت أيضًا أنهما لكي يصيرا غليظين عليها ان تقصّهما مرارًا متوالية.

فنظرت صوفيا ذات يوم الى وجهها في المراة ووجدت أن حاجبيها رفيعان. فقالت في سرها:

صوفيا: — بما أن الشعر يصبح كثيفًا اذا قُصّ

فالحواجب وهي من الشعر يجب أن تكون مثله. سأقصّها اذًا لكي تنبت غليظة.

وتناولت صوفيا المقصّ وقصّت حاجبيها قصيرَيْن جدًا. ونظرت الى وجهها في المرآة فوجدت أن هيئتها أصبحت مضحكة. فلم تجرؤ على الذهاب الى قاعة الاستقبال، وقالت:

صوفيا: - سأنتظر الى ما بعد ترتيب مائدة العشاء. فلا يفتكر أهلي بالنظر اليّ عندما يجلسون لتناول الطعام.

لكن والدتها التي لم تبصرها داخلة للعشاء أرسلت ابن خالتها بولس ليأتي بها. فناداها قائلًا:

بولس: - صوفيا يا صوفيا، أين أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟ هيّا الى العشاء.

صوفيا: - نعم نعم، **ها** أنا آتية.

أجابت وهي تتراجع الى الوراء لكي لا يشاهد بولس حاجبَيْها المقصوصَيْن. ثم دفعت صوفيا الباب ودخلت.

وما كادت تضع قدميها في القاعة حتى تطلع الجميع اليها وقهقهوا ضاحكين.

- ما هذا الوجه؟ صاح أبوها.

- لقد قصّت حاجبيها. هتفت أمّها.

- ما أغرب منظرها، ما أبشعه! قال بولس.

- عجبًا، كيف غيّر هيئتها هذان الحاجبان المقصوصان. قال السيد أوبار والد بولس.

- لم أشاهد في حياتي وجهًا أغرب من هذا. قالت السيدة أوبار خالتها. ظلت صوفيا واقفة مكسوفة متدلّية الذراعين، منخفضة الرأس لا تدري اين تختبئ. لذلك كان يسرّها أن تقول لها والدتها:

السيدة دريان: - عودي الى غرفتك يا آنسة، فأنت لا تتصرّفين إلّا بحماقة.

فذهبت صوفيا. وبدأت خادمتها تضحك بدورها عندما رأت وجهها العجيب الأحمر بدون حاجبين. فتضايقت صوفيا لأن جميع الذين أبصروها قهقهوا

ضاحكين، ونصحوها بأن ترسم بالفحم خطّين مكان الحاجبَيْن المقصوصَيْن. ذات يوم جاءها بولس برزمة صغيرة مربوطة بخيط ومختومة جيدًا، وقال لها بلهجة ساخرة:

بولس: - هذه يا صوفيا هديّة أرسلها لك أبي.

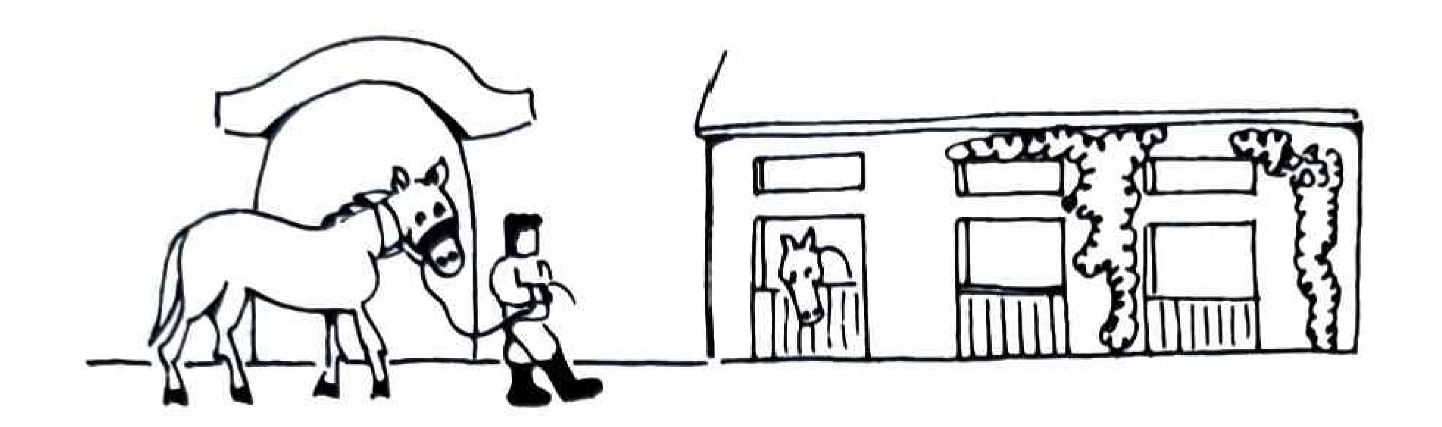
صوفيا: - ما هي؟ سألته وهي تستلم الرزمة باهتمام.

وعندما فتحتها وجدت فيها حاجبين ضخمين سوداوين.

بولس: - هذان لتلصقيهما في مكان الحاجبَيْن المقصوصَيْن.

فاحمرّ وجه صوفيا خجلًا، واستاءت ثم ألقتهما في وجه ابن خالتها الذي هرب ضاحكًا.

أمّا حاجباها الاصليّان فظلَّا ستة اشهر حتى نبتا ولم يصيرا غليظين كما كانت صوفيا تتمنّى. ومنذ ذلك الحين لم تحاول صوفيا أن تجعل حاجبيها أجمل ممّا هما حقيقةً.



٩

خبز الأحصنة

كانت صوفيا شرهة. وكانت والدتها تعرف ان المبالغة في الأكل مضرّة بالصحة. لذلك كانت تمنع ابنتها عن الأكل بين وجبة واخرى. لكن صوفيا التي كانت تجوع سريعًا، كانت تأكل كل ما يقع تحت يدها.

كانت السيدة دريان تذهب كل يوم بعد الغداء حول الساعة الثانية لتعطي أحصنة زوجها بعض الخبز والملح. وكان يملك اكثر من مئة حصان. وكانت صوفيا تتبع أمها، وفي يدها سلّة مملوءة قطعًا من الخبز الأسمر، فتقدّم

واحدة لكل حصان. لكن أمها كانت تمنعها بقساوة من أن تأكل منها لأن هذا الخبز المائل الى السواد وغير المخبوز جيّدًا يضرّ بمعدة الانسان.

أخيرًا وصلت الى اسطبل الاحصنة الصغيرة الحجم التي كان أحدها مخصّصا لها، أعطاها اياه والدها، وهو حصان صغير أسود اللون حجمه ليس اكبر من حمار عادي، وقد سمحت لها امها بأن تقدّم لحصانها الصغير قطعة خبز، وغالبًا ما كانت تنهش منها عضّة قبل أن تعطيه إيّاها.

ذات يوم، كانت مشتهية هذا الخبز الأسمر حسب العادة. فأمسكت بقطعة بين أصابعها بطريقة لم تترك إلّا طرفًا ضيقًا يظهر منها، وقالت:

صوفيا: - الحصان الصغير سيأكل الجزء الذي يتعدّى أصابعي وأنا آكل ما يتبقّى. فقدّمت الخبز لحصانها الصغير الذي تناول في الوقت ذاته الجزء البارز بعد الاصابع وطرف إصبع صوفيا الذي عضّه بعنف. فلم

تجسر صوفيا أن تصرخ. لكن الالم أجبرها على التخلّي عن قطعة الخبز فسقطت على الارض. عندئذ ترك الحصان الإصبع ليأكل الخبز الذي بقي بين اسنانه.

سال الدم من إصبع صوفيا بغزارة. فسحبت منديلها من جيبها ولفّت به اصبعها، وشدّته عليه بقوة فتوقّف نزف الدم، ولكن ليس قبل أن يمتلئ المنديل دمًا. فأخفت صوفيا يدها الملفوفة تحت مريولها، ولم تبصرها أمها.

لكن عندما جلس الجميع الى المائدة للعشاء، لم تستطع صوفيا ان تخفي يدها التي لم تكن قد شفيت تمامًا، ولم يتوقّف نزْف الدم منها نهائيًا. واذا بها عندما أخذت ملعقتها وقدحها، قد لوّنت غطاء المائدة. فلمحتها والدتها وسألتها:

الام: - ماذا جرى ليدكِ يا صوفيا؟ فقد تلوّث غطاء المائدة دمًا حول صحنك.

لم تجاوب صوفيا.

الام: - ألم تسمعي سؤالي؟ من أين هذا الدم الذي لوّث غطاء المائدة؟

صوفيا: - يا ماما ، هذا... هذا... من إصبعي.

الام: - وماذا أصاب إصبعك؟ منذ متى هو هكذا؟

صوفيا: - منذ هذا الصباح، يا ماما. لقد عضّني حصاني الصغير.

الام: - كيف عضّك هذا الحصان الصغير اللطيف كالخروف، كيف عضك؟

صوفيا: - عندما أعطيتُه قطعة الخبز، يا ماما.

الام: - طبعًا، لم تقدّمي له قطعة الخبز بيدك وهي مفتوحة، كما أوصيتك أن تفعلي.

صوفيا: - كلّا ، يا ماما، كنت ممسكة بها بين أصابعي المطبقة.

الام: - بما انك حمقاء الى هذا الحدّ لن تعطي

حصانك خبزًا بعد الآن.

وامتنعت صوفيا عن الجواب. وافتكرت أن السلّة ستكون دائمًا معها وفيها الخبز الذي يُقدَّم للاحصنة، وأنها ستأكل قليلًا من هنا ومن هناك.

في اليوم التالي، كانت تتبع والدتها الى الاسطبل. وبينما كانت تقدّم قطع الخبز اخذت قطعة وخبأتها في جيبها، ثم اكلتها حينما كانت والدتها ملتهية لا تنظر اليها.

عندما وصل دور آخر حصان، لم يبقَ شيء لإعطائه. فأكّد السائس انه وضع في السلّة قطعًا من الخبز بعدد الأحصنة. فأرته الام السلّة الفارغة التي تبرهن على نقص قطعة الحصان الأخير. وفيما هي تتكلم ألقت نظرة على صوفيا التي كان فمها مملوءًا وتستعجل ابتلاع آخر لقمة. لكنها مهما استعجلت وابتلعت الخبز بدون مضغ، فقد شاهدتها امها تأكل. وفهمت انها أكلت القطعة الناقصة. وكان الحصان ينتظر حصّته من الخبز بفارغ الصبر،

وبرهانًا على ذلك، كان يضرب الأرض بحافره ويصهل. فقالت لها:

الام: - ايتها الشرهة، بينما أنا لا أنظر اليك، غافلتني وسرقتِ قطعة من خبز الأحصنة، ولم تطيعيني. فأنت تعرفين كم مرة حرّمت عليك الأكل من هذا الخبز. اذهبي الى غرفتك، يا آنسة، ولن تعودي الى هنا معي لاطعام الأحصنة خبزًا. وسأرسل لك عشاءك خبزًا وقليلًا من الحساء فقط، لأنك تحبّينه كثيرًا.

فخفضت صوفيا رأسها بحزن وخجل، وذهبت بخطوات بطيئة الى البيت، ثم دخلت غرفتها. فقالت لها الخادمة:

الخادمة: - ما بكِ؟ لماذا وجهكِ حزين هكذا؟ هل نِلْتِ قصاصًا جديدًا؟ ماذا فعلتِ أيضًا من الحماقات كعادتك؟

صوفيا: - أكلتُ فقط من خبز الأحصنة. أجابتْ باكية. أنا أحبه كثيرًا والسلّة كانت مليئة. فظننت أن أمي

لن تنتبه الى ذلك. ولهذا السبب سيكون عشائي خبزًا لا غير، زادت قائلة وهي تبكي بمرارة.

فنظرت اليها الخادمة مشفقة و تنهّدت. وكانت تغنّج صوفيا. فوجدت ان والدتها تقسو عليها أحيانًا، وحاولت أن تعزّيها وتخفّف قصاصها. لذا عندما جاءها أحد الخدم بالحساء وقطعة خبز وقدح ماء تناولتها منه الخادمة بمزاج عكر، ووضعتها على المائدة ثم ذهبت الى الخزانة وفتحتها وأخرجت منها قطعة كبيرة من الجبن ووعاء مربّى وقالت لصوفيا:

الخادمة: - خذي كُلي أوّلًا الجبن مع الخبز ثم المربّى .

واذ رأت صوفيا متمرّدةً أضافت قائلة: ان والدتك لم ترسل لكِ سوى الخبز. لكنها لم تمنعني من وضع شيء آخر عليه.

صوفيا - لكن عندما ستسألني امي عمّا اذا كان أحد قد أعطاني شيئًا مع الخبز، يجب علي أن أقول لها

الحقيقة، وحينئذ...

الخادمة: - حينئذ تقولين لها اني أعطيتك جبنًا ومربّى، وأمرتك بأن تأكلي، وانا اتكفّل لها بشرح رغبتي في ان لا تأكلي الخبز وحده لأنه لا يفيد المعدة، حتى إن المساجين يأكلون شيئًا آخر مع الخبز.

لكن الخادمة أساءت التصرّف هكذا. إذْ شجّعت صوفيا على العصيان وعلى الاكل خفيةً ممّا منعته عنها والدتها. غير أن صوفيا كانت فتاة شرهة، وكانت تشتهي أكْل الجبن وتحبه اكثر من الخبز. فأطاعت بسرور وتناولت عشاءً ممتازًا. وقد أضافت خادمتها قليلًا من الخمر الى قدح الماء. وتعويضًا عن الحلوى أعطتها قدح ماء ثانية وأضافت اليه نبيذًا حلوًا، غمست فيه صوفيا ما تبقّى لها من الخبز.

- الخادمة: أتعرفين ماذا يجب ان تفعلي في المرة القادمة عندما تكونين مقاصصة او عندما تشتهين الاكل؟ تعالي اخبريني فأجد لك دائمًا شيئًا طيّبًا اعطيك اياه،

ويكون أفضل من هذا الخبز الاسْود الرديء المخصّص للأحصنة والكلاب.

فوعدت صوفيا خادمتها بأن لا تنسى وصيّتها، كلّما اشتهت شيئًا لذيذ الطعم.

١٠

القشطة والخبز الساخن

كانت صوفيا شرهة كما قلنا. ولم تنسَ اذًا ما أوصتها به خادمتها.

ذات يوم اختصرت طعام الفطور لأنها علمت بأن احدى المُزارعات قد أحضرت لخادمتها شيئًا لذيذًا. فقالت لها إنها لا تزال جائعة. فأجابتها:

الخادمة: - حسنًا طلبك عندي. فالمُزارعة أحضرت لنا سطل قشطة كبير الحجم كهدية مع خبز أسمر طازج. سأعطيك منه ما تشتهين، وسترين كم هو لذيذ!

ووضعت على المائدة رغيف خبز ساخن ووعاءً كبيرًا

مليئًا بالقشطة الكثيفة الفاخرة. فهجمت صوفيا عليها كأنها تكاد تموت جوعًا. وعندما كانت الخادمة تقول لها أن لا تأكل كثيرًا سمعت صوت امها تناديها: لوسيا، يا لوسيا (وهو اسم الخادمة).

فأسرعت لوسيا الى سيدتها لترى ماذا تريد. فطلبت منها ان تحضر وتبدأ شغلًا يوميًّا لصوفيا قائلة:

السيدة دوريان: -قريبًا ستبلغ الرابعة من العمر. وقد حان وقت تعليمها كيف تشتغل بالابرة.

الخادمة: - اي شغل تريد سيدتي ان تعلّم ابنتها الصغيرة السنّ؟

السيدة دوريان: - أحضري لها منديلًا أو فوطةً لتخيط الزيْف في اطرافها.

لم تقل الخادمة كلمة. وخرجت من القاعة معكورة المزاج.

عندما وصلت الى غرفتها وجدت صوفيا لا تزال تأكل.

وقد كاد وعاء القشطة يفرغ ورغيف الخبز قد نقص قسم كبير منه. فصاحت وهي تحضر المنديل لصوفيا:

الخادمة: - يا الهي، ستمرضين! هل من المعقول ان تأكلي كل هذه الكمية؟ ماذا تقول أملكِ اذا رأتكِ مضرورة؟ ستسبّبين لي اللوم والتوبيخ.

صوفيا: - كوني مطمئنة البال، يا خادمتي. كنت جائعة كثيرًا، ولن أمرضِ. ما أطيب القشطة مع الخبز الساخنِ! كان الطعام لذيذًا حقًا.

الخادمة: - نعم، لكنه ثقيل جدًا على المعدة. يا الهي، ما أكبر قطعة الخبز التي أكلتِها! أنا خائفة، خائفة جدًا من ان تمرضي.

صوفيا (وهي تعانقها): - كلا يا عزيزتي لوسيا. كوني مطمئنة. أؤكّد لك أني بصحة جيدة.

واعطتها الخادمة منديلًا صغيرًا لتخيط أطرافه. وطلبت منها ان تحمله الى والدتها التي تريد أن تعلّمها الشغل

اليدوي.

فأسرعت صوفيا الى قاعة الاستقبال حيث كانت والدتها في انتظارها. وقدّمت لها المنديل. فأرت الأمّ ابنتها صوفيا كيف عليها أن تشكّ الابرة وتسحبها. وكان البدء في الشغل غير حسَنَ. لكن بعد قليل أصبح الشغل أجود، ورأت صوفيا ان الشغل يسلّي كثيرًا. فقالت لوالدتها:

صوفيا: – اتريدين يا ماما أن أُري خادمتي ما اشتغلت الآن؟

الام: – اجل يمكنك ان تذهبي حالًا، وستعودين فيما بعد لترتّبي أغراضك في غرفتك.

فأسرعتْ صوفيا الى خادمتها التي أعجبها كثيرًا شغل صوفيا. فسألتها بقلق اذا كانت معدتها تؤلمها.

صوفيا: – كلا، يا خادمتي، أبدًا فقط انا لست جائعة.

الخادمة: - لا شكّ في ذلك، بعد كل ما أكلتِه. لكن عودي سريعًا الى قرب والدتك خوفًا من ان توبّخك.

فعادت صوفيا الى القاعة، ورتّبت أغراضها، وراحت تلعب.

أثناء اللعب شعرت بانزعاج، فالقشطة والخبز الساخن ثَقُلا على معدتها. فبدأت تشعر بألم في رأسها. فجلست على كرسيها الصغير وظلت بدون حراك وعيناها مغمضتان.

ولمّا لم تسمع الام لها حركة، التفتت فرأت صوفيا شاحبة اللون كأنها تتوجع.

فسألتها بقلق:

الام: - ما بكِ، يا صوفيا؟ هل أنتِ مريضة؟

صوفيا: - انا موجوعة يا ماما ، وأشعر بأن رأسي يؤلمني.

الام: - منذ متى؟

صوفيا: - منذ أن انهيت ترتيب شغلي.

الام: - هل أكلتِ شيئًا؟

فتردّدت الصغيرة، ثم أجابت بصوت خافت:

صوفيا: - لا يا ماما، لم آكل شيئًا ابدًا.

الام: - أراك تكذبين. سأذهب وأسأل الخادمة التي تقول لي الحقيقة. خرجت الأمّ، وغابت بضع دقائق، وعندما عادت كانت غاضبة.

الام: - لقد كذبتِ عليَّ، يا آنسة، فان خادمتك قد باحت لي بأنك أكلتِ خبزًا ساخنًا وقشطة، وأنك أكلت بشراهة زائدة. فأنت تستحقين ما أصابك. لأنك ستمرضين ولن تستطيعي الذهاب الى خالتك أوبار للعشاء هناك مع ابنها بولس حيث تلتقين بكميليا ومدلين. لكن ، بدلًا من أن تتسلّي وأن تركضي في الغابات لقطف الفريز (توت الارض) ستبقين وحدك في البيت ولن تأكلي إلّا الحساء.

امسكت السيدة دريان بيد ابنتها صوفيا، فأحسّت بأنها تلتهب من شدّة الحمّى. فأخذتها حالًا الى غرفة النوم، وقالت للخادمة:

مدام دريان: - انا امنعك من اعطاء صوفيا أيّ طعام قبل الغد. إسْقِها ماءً أو اغلي لها أوراق البرتقال. واذا كررتِ ما فعلتِه هذا الصباح، سأطردك حالًا.

ففهمت الخادمة أنها مذنبة، ولم تجاوب. أما صوفيا فكانت فعلًا مريضة. فنامت في سريرها بدون ان تقول كلمة. وقضت ليلة قاسية. وكان رأسها يؤلمها وكذلك معدتها. ولم تستطع ان تنام قليلًا إلّا عند اقتراب الصباح. وحينما استيقظت كان رأسها لا يزال يوجعها قليلًا. لكن الهواء الطلق أفادها، وامضت النهار حزينة تأسف لعدم ذهابها الى العشاء عند خالتها.

ظلت تتألّم مدة يومين. ومنذ ذلك الحين، لم تعد تحب طعم القشطة والخبز الساخن، ولم تأكل منهما ابدًا.

كانت تذهب أحيانًا برفقة ابن خالتها وصاحباتها الى

المزارع المجاورة. فكان جميع الحاضرين يستطيبون أكل القشطة اللذيذة والخبز الأسمر ما عدا صوفيا وحدها فلا تذوقهما. لان مجرد منظر هذه القشطة الكثيفة الطريّة وخبز المزرعة كان يذكّرها بما قاسته من الألم بسبب أكلها منهما فوق الشبع. ومنذ ذلك الوقت أيضًا لم تعد تصغي الى نصائح خادمتها التي لم تبقَ طويلًا في البيت. لأن السيدة دريان التي لم تعد تثق بها فاستبدلتها بخادمة اخرى مدركة وأعقل منها، لا تسمح لصوفيا بأن تفعل ما كانت أمها تمنعها عنه.



١١

السنجاب

ذات يوم كانت صوفيا تتنزه بصحبة ابن خالتها بولس في غابة صغيرة من أشجار البلّوط كانت قريبة من المنزل. وكانا كلاهما يجمعان ثمار البلّوط ليصنعا منها سلالًا وقباقيب ومراكب. بغتة أحسّت صوفيا بأن بلّوطة سقطت على ظهرها، بينما كانت تنحني لالْتقاط واحدة واقعة على الارض، وأحسّت بأخرى أصابت طرف أذنها، فقالت:

صوفيا: - بولس، يا بولس، تعالَ وانظر هذه البلّوطات التي سقطت علي كيف هي مقضومة. فمن قضمها

هكذا يا ترى في أعلى الشجرة؟ الفئران لا تستطيع ان تتسلّق الاشجار العالية، والعصافير لا تأكل ثمار البلّوط.

اخذ بولس البلّوطات ثم رفع رأسه وصاح:

بولس: - هذا سنجاب ينظر الينا من أعلى الشجرة كأنه يسخر منّا. فتطلّعت صوفيا الى فوق وشاهدت سنجابًا صغيرًا جميلًا بذنبه المرفوع المنتفخ وهو أكبر منه. كان ينظّف وجهه بقائمتيه الاماميتين الصغيرتين، ومن حين الى آخر ينظر الى صوفيا وبولس، ثم يقفز ويتنقّل من غصن الى غصن.

صوفيا: - كم أود أن أحصل على هذا السنجاب! كم هو لطيف وكم سأتسلّى بملاعبته! فآخذه الى النزهة واعتني به.

بولس: - لن يصعب علينا أن نمسك بالسنجاب. انما رائحته كريهة في الغرفة. ثم انه يقضم كل شيء.

صوفيا: - سأمنعه من القضم لأني سأخفي كل

أغراضي. ولن تكون رائحته كريهة لأنّي سأنظّف قفصه مرّتين كل يوم. لكن كيف العمل لالْتقاطه؟

بولس: - سأجلب قفصًا كبيرًا، وسأضع فيه الجوز والبندق واللوز وكل ما يحب السنجاب أكله. وسآتي بالقفص الى جانب شجرة البلّوط هذه وأترك الباب مفتوحًا وأربطه بخيط واختبئ وراء الشجرة. وحالما يدخل السنجاب القفص ليأكل، أشدّ الخيط فينغلق الباب ويبقى السنجاب محبوسًا في داخله.

صوفيا: - لكن السنجاب لن يقبل بدخول القفص لأنّه يخاف منه.

بولس: - لا خطر في ذلك. فالسنجاب شَرِه ولن يقاوم شهيّته الى اللوز والجوز.

صوفيا: - ارجوك ان تمسك به يا عزيزي بولس فأكون مسرورة للغاية.

بولس: - لكن، ماذا ستقول املِك؟ ربّما هي لا تريد.

صوفيا: – ستريد، سنطلب كلانا منها ذلك بإلْحاح، فتوافق.

وأسرع الولدان الى البيت. وقد تعهّد بولس بأن يَشرح المسألة لخالته التي رفضت أوّلًا ثم وافقت وقالت:

الام: – انبّهك الى ان السنجاب سيجلب لك عن قريب كثيرًا من المتاعب. سيصعد فوق كل شيء. وسيقضم الكتب والالعاب وستكون رائحته كريهة، ولن يتحمّله أحد.

صوفيا: – يا ماما، يا ماما، أعدكِ بأن أحرسه كم يجب فلا يخرّب شيئًا.

الام: – أوّلًا انا لا اريد ان يدخل السنجاب الى قاعة الاستقبال ولا الى غرفتي. ثم عليكِ ان تحتفظي به دائمًا في غرفتك.

صوفيا: – نعم، يا ماما، سيكون على الدوام عندي، ما عدا حين آخذه الى النزهة.

أسرعت صوفيا ومعها بولس مسرورَيْن لجلب القفص الموجود في مستودع الحبوب والمؤونة. وكان في الماضي قد حوى سنجابًا. فحملاه ونظّفاه بمساعدة الخادمة، ووضعا في داخله لوزًا أخضر وجوزًا وبندقًا.

صوفيا: - والآن هيّا بنا ننقل القفص الى أسفل شجرة البلّوط. بشرط أن يكون السنجاب لا يزال هناك.

بولس: - انتظري كي أربط الخيط في الباب. عليَّ أن ادخله بين القضبان لكي ينغلق الباب حالما أشدّ الخيط.

صوفيا: - انا اخشى ان يكون السنجاب قد ذهب.

بولس: - لا، سيبقى هناك حتى قدوم الليل. ها قد انتهى الامر شدّي الخيط لنرى اذا كان سيقوم بوظيفته كما يجب.

فشدّت صوفيا الخيط، وانغلق الباب حالًا. ففرح الولدان وحملا القفص الى الغابة الصغيرة. وعندما وصلا الى شجرة البلّوط تطلّعا اذا كان السنجاب لا يزال

عليها، فلم يشاهداه. ولم تكن الاوراق ولا الأغصان تتحرّك. فحزن الولدان وراحا يبحثان عنه تحت أشجار البلّوط. واذا بصوفيا تتلقى على جبينها بلّوطة مقضومة نظير التي رأتها هذا الصباح. فصاحت:

صوفيا: - انه هنا، انه هنا. ها هو طرف ذنبه الضخم الطويل يظهر من وراء غصن كثيف الأوراق.

في الواقع سمع السنجاب الحكي، فمد رأسه الصغير ليرى ماذا يجري حوله.

بولس: - حسنًا يا صديقي، انت هنا، وقريبًا ستكون داخل القفص. ها هي المؤونة التي جلبناها لك. فكنْ شرهًا، يا عزيزي وسترى ما هو قصاص الشراهة.

أمّا السنجاب الصغير الذي لا يرضى بأن يكون سجينًا تعيسًا، فظل ينظر اليهما بسخرية، ويهزّ رأسه يمينًا ويسارًا. لقد رأى القفص الذي وضعه بولس على الارض. وألقى نظرة بشوق الى اللوز والجوز. وعندما اختبأ الولدان وراء جذع شجرة، نزل غصنين او ثلاثة،

ووقف وأخذ ينظر الى جميع الجهات، ثم نزل أيضًا قليلًا وتابع نزوله هكذا رويدًا رويدًا حتى وصل الى القفص ووقف فوقه. فمدّ إحدى قوائمه من خلال القضبان، ثم قائمة أخرى. ولكن بما أنه لم يستطع ان يلتقط شيئًا مما فيه، وكانت اللوزات تبدو له شهية اكثر فأكثر، حاول أن يجد طريقة لدخول القفص بأمان، ولم يَطُل به الامر حتى اهتدى الى الباب. فوقف عند المدخل ونظر الى الخيط بحذر ثم مدّ إحدى قوائمه ليصل الى اللوز أو الجوز. لكنه حين لم يمكنه الوصول اليها غامر أخيرًا ودخل القفص. وما كاد يصبح داخله حتى شدّ الولدان الخيط وكانا يراقبان حركات السنجاب بطرف اعينهما من خلف الشجرة بقلب خافق، فأصبح السنجاب سجينًا. ومن شدّة خوفه رمى اللوزة التي بدأ يقضمها. وصار يدور في القفص ويحاول الهرب. لكن للأسف كان على الحيوان الصغير أن يدفع غاليًا ثمن شراهته ببقائه في سجنه وقد فَقَد حريته. فأسرع الولدان الى

القفص وأغلق بولس بابه جيدا، وحمله الى غرفة صوفيا التي سبقته راكضة ونادت خادمتها بلهجة المنتصر لتأتي وتشاهد صديقها الجديد.

فلم تكن الخادمة مسرورة بهذا الضيف العجيب اذ قالت:

الخادمة: - ماذا نفعل بهذا الحيوان؟ سيعضّنا وسيُحدِث ضجّة متواصلة لا تُطاق. ما هذه الفكرة الغريبة التي خطرت ببالك يا صوفيا أن تهتمّي بمثل هذه البهيمة الخبيثة؟

صوفيا: - أوّلًا يا خادمتي هذا السنجاب غير خبيث. فهو حيوان جميل جدًا ولن يُحدِث أية ضجة ولن يعضّنا وسأعتني أنا به.

الخادمة: - في الحقيقة، انا أُشفق على هذا الحيوان المسكين، لانك ستتركينه قريبًا يموت جوعًا.

صوفيا (بغيظ): - يموت جوعًا؟ كلّا ثم كلّا.

سأعطيه بندقًا ولوزًا وخبزًا وسكرًا ونبيذًا أيضًا.

الخادمة (باستهزاء): - ها هو سنجاب ممتاز التغذية. سيؤذي السكر اسنانه وسيُسكره النبيذ.

بولس (ضاحكًا): - هه هه ها. سنجاب سكران. هذا غريب جدًّا.

صوفيا: - أبدًا، يا استاذ. لن يسكر السنجاب، بل سيحافظ دائمًا على كامل وعيه.

الخادمة: - سنرى ذلك. انا ذاهبة أوّلًا لاجلب له قليلًا من التبْن كي ينام عليه. لأنّ علامات الخوف مرتسمة على وجهه الحزين. أظنه ليس مسرورًا بحبسه هكذا.

صوفيا: - سأمسد جلده وألاطفه حتى يعتاد عليَّ وأُريه أننا لا نريد أن نؤذيه.

ومدّت صوفيا يدها الى داخل القفص. ففزع السنجاب، وتراجع إلى إحدى الزوايا. فمدّت صوفيا يدها أكثر فأكثر نحو السنجاب. وإذْ أوشكت ان تلمسه

عضّ لها إصبعها. فصرخت صوفيا وسحبت فورًا يدها الملطخة دمًا. ولما بقي باب القفص مفتوحًا أسرع السنجاب الى الخروج من القفص وراح يركض في الغرفة، وركضت الخادمة وركض بولس وراءه. لكنهما عندما ظنّا انهما أمسكا به قفز السنجاب وهرب وظل يركض في الغرفة. فنسيت صوفيا أَلَم إصبعها الذي ينزف منه الدم، وارادت أن تساعد الخادمة. وواصل الثلاثة ملاحقته مدة نصف ساعة. وحين بدأ السنجاب يتعب وكان على وشك الوقوع في أيديهم رأى النافذة مفتوحة، فقفز اليها وتسلّق حافّتها من الخارج وصعد الى السطح. فنزلت صوفيا وتبعها بولس مع الخادمة الى البستان راكضين. ورفعوا رؤوسهم ولمحوا السنجاب على حافّة السطح يكاد يموت من التعب والفزع فصاحت:

صوفيا: - ما العمل يا خادمتي، ما العمل؟

الخادمة: - علينا ان نتركه وشأنه. ألَا ترين كيف عضّكِ؟

صوفيا: - لأنه لا يعرفني بعد، يا خادمتي. لكن عندما يرى أني أقدّم له الطعام سيحبني.

بولس: - أعتقد انه لن يحبك أبدًا، لأنه عجوز أكثر من أن يتعوّد على الحبس. كان علينا ان نحصل على واحد صغير.

صوفيا: - أرجوك أن ترمي له الكرة، يا بولس. هيا سنمسك به ونرجعه الى القفص.

بولس: - انا أريد من كل قلبي. لكني أعتقد أنه لن يقبل بالنزول عن السطح.

وذهب بولس وجلب كرة كبيرة ورماها اليه بمهارة فأصاب بها رأس السنجاب. فنزلت الكرة، وهي تدور في الهواء، ونزل وراءها السنجاب المسكين وسقطا كلاهما على الارض بقوّة. قفزت الكرة مرارًا وتوقّفت. أمّا السنجاب فتحطّم رأسه عندما لامس الارض وبقي في مكانه ميتًا يسبح رأسه بالدم، وظهره وقوائمه مكسورة.

فأسرعت صوفيا ولحق بها بولس ليلمّاه. فجمدا مدهوشين امام الحيوان المسكين الميْت. ثم صاحت صوفيا مذعورة:

صوفيا: - يا لك من صبي شرّير يا بولس! فقد سبّبت الموت لسنجابي.

بولس: - الذنب ذنبك. لماذا أردتِ أن أنزله برمْيه بالكرة؟

صوفيا: - كان عليك ان تفزعه فقط، لا أن تقتله.

بولس: - لكني لم أقصد ان اقتله. لقد أصابته الكرة، وأنا لا أظن اني هكذا بارع في رميها.

صوفيا: - انتَ لستَ بارعًا بل شرّيرًا. إذهب عني فأنا لم اعد أحبك مطلقًا.

بولس: - وانا أيضًا أكرهكِ. أنتِ اكثر حماقة من السنجاب. وأنا مسرور لكوني منعتك من تعذيبه.

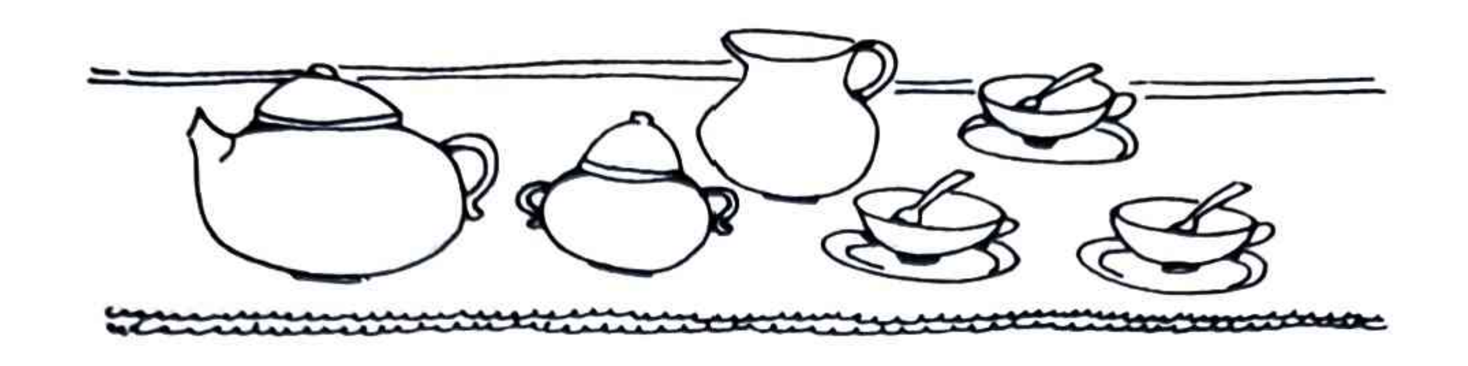
صوفيا: - أنتَ صبي لئيم مؤْذٍ، يا أستاذ. ولن ألاعبك ولن أطلب منك أيّ شيء أبدًا.

بولس: – هذا أفضل يا آنسة. وهكذا أرتاح منك ولن أُتعب رأسي بعد الآن في مساعدتك على تنفيذ حماقاتك.

الخادمة: – ما هذا يا اولاد؟ بدلًا من أن تتشاجرا اعترفا بأنكما تصرّفتما بدون تفكير، وانكما كلاكما مذنبان سبّبتما معًا موت السنجاب. مسكين هذا الحيوان. هو الآن أسعد حالًا مما لو كان بقي حيًّا معكما. لانه على الاقلّ لم يعد يتألّم. سأنادي أحدًا ليأخذه ويرميه في حفرة بعيدة. وأنتِ يا صوفيا أصعدي الى غرفتك وغطّسي يدك في الماء، وسألحق بك.

فذهبت صوفيا وتبعها بولس الذي كان صبيًّا طيّب القلب غير حقود. وبدلًا من أن يحرد، ساعد صوفيا على سكب الماء في وعاء وعلى تغطيس يدها فيه. عندما صعدت الخادمة، لفّت إصبع صوفيا ببعض ورقات خسّ طريّة، وبرباط من الشاش. وكان الولدان خجلَيْن قليلًا، حين دخلا القاعة للعشاء من اضطرارهما الى أن يرويا

كيف انتهت المغامرة الحزينة التي سبّبت موت السنجاب. فهزأ بهما أهلهما. وأعيد قفص السنجاب الى مستودع الحبوب والمؤونة. وآلم صوفيا إصبعها طوال عدة ايام، لم تفكّر بعدها بالسنجاب الا لتعلن انها لن تريد غيره أبدًا.



١٢

الشاي

يوم ١٩ تموز ذكرى مولد صوفيا التي أكملت الرابعة من عمرها، أرادت والدتها ان تقدّم لها هدية جميلة. انما لم تقل لها مسبقًا ماذا ستعطيها. نهضت صوفيا ذلك اليوم أبكر من المعتاد، واستعجلت في ارتداء ملابسها لتذهب الى أمها وتستلم الهدية، قائلة:

صوفيا: - عجّلي عجّلي يا خادمتي فأنا مشتاقة الى معرفة ما ستعطيني أمي بمناسبة عيد مولدي.

الخادمة: - اتركيني أسرّح لك شعرك على مهل. فلا يمكنك ان تذهبي مشعّثة الشعر كما انت. فتكون سنتك

الخامسة رائعة جدًا. إهدإي ولا تتحرّكي.

صوفيا: - آه آه، أنتِ تقتلعين شعري، يا خادمتي.

الخادمة: - انكِ تضعضعين وعيي. بحياتك كيف تريدين أن أحزر من أية جهة تنوين أن تديري رأسك.

أخيرًا اكتمل لبسها وتسريح شعرها، وأمكنها أن تسرع الى أمها التي قالت لها باسمة:

الام: أراكِ اليوم مبكّرة، ولم تنسي بلوغك سنتك الخامسة والهدية التي سأقدّمها لك بهذه المناسبة. خذي هذا الكتاب الذي سيسلّيكِ كثيرًا. فشكرت صوفيا أمها بارتباك، وأخذت الكتاب المجلّد بنسيج أحمر اللون وقالت:

صوفيا: ماذا أفعل بهذا الكتاب، وانا لا أعرف القراءة؟ فهو لا يفيدني.

فنظرت اليها والدتها وضحكت قائلة:

الام: يظهر عليك انك غير راضية عن هديتي، مع أنها جميلة جدًا. وقد كُتب على الغلاف كعنوان: الفنون

الجميلة. وأنا واثقة بأنه سيسلّيكِ اكثر ممّا تظنين.

صوفيا: - لا أعرف يا ماما.

الام: - افتحيه فترَيْ.

ارادت صوفيا ان تفتح الكتاب. لكنها فوجئت بأنها لم تستطع فتْحه، والامر الذي ادهشها اكثر هو أنها عندما هزّته سمعت من داخله ضجة غريبة فنظرت صوفيا الى امها بتعجّب. فضحكت والدتها وقالت لها:

الام: - هذا كتاب عجيب ليس كغيره من الكتب التي تنفتح من تلقاء ذاتها. فانه لا ينفتح إلّا اذا ضغطتِ بابهامك على منتصفه.

وضغطت الام قليلًا بإبهامها، فانفتح القسم الأعلى من الغلاف. فأبصرت صوفيا بفرح أنه فعلًا ليس كتابًا، بل علبة رائعة للتلوين، فيها ريشة رسم وصحون صغيرة، واثنا عشر دفترًا مملوءة بالصور البديعة للتلوين. فصاحت الفتاة:

صوفيا: - شكرا، يا ماما انا مسرورة. كم هذه العلبة

للتلوين جميلة!

الام: - كنتِ منذ لحظة غير راضية لانكِ ظننت أني أعطيك كتابًا حقيقيًا لكني لم أرد أن اضايقك بذلك. يمكنك أن تلوّني طوال النهار برفقة ابن خالتك بولس وصاحبتيك كميليا ومدلين اللتين طلبتُ منهما أن تقضيا هذا اليوم معك وستأتيان حول الساعة الثانية. وقد كلّفتني خالتك بأن أقدّم لك من قِبَلها مجموعة الشاي الصغيرة هذه. إذْ لن يمكنها أن تجيء قبل الساعة الثالثة وأرادت أن تقدّم لكِ هذه الهدية منذ الصباح.

أخذت صوفيا السعيدة الصينية والفناجين الستّة وابريق الشاي ووعاء السكّر ووعاء الحليب المصنوعة جميعها من الفضة. وطلبت الأذن لتصنع وتقدّم فيها شايًا حقيقيًا لأصحابها. فقالت لها والدتها:

الام: - لا، لأنك ستدلقين الحليب في كل مكان، وسيحرق الشاي الساخن أصابعك واصابع اصحابك. عليكم ان تتظاهروا بأنكم تتناولون فيها الشاي. وهذا

يسلّيكم، كما لو كان فيها شاي حقيقي.

فلم تقل صوفيا كلمة. لكنها لم تكن راضية، اذ قالت:

صوفيا: - ما الفائدة من هذه المجموعة، اذا كنت لا أستطيع ان اضع فيها شايًا؟ سيسخر اصحابي مني. عليَّ أن افتّش عمّا أملأ به كل هذه الاوعية، وسأطلب من خادمتي ان تساعدني على ذلك.

فقالت صوفيا لوالدتها انها ستُري خادمتها هذه المجموعة، وحملت علبتها بما فيها وأسرعت الى غرفتها.

صوفيا: - أنظري يا خادمتي هذه الهدايا الجميلة التي اعطتني اياها أمي وخالتي أوبار.

الخادمة: - ما أجمل هذه المجموعة! ستسلّيكِ كثيرًا. لكني لا أحب هذا الكتاب. ما الفائدة منه وانت لا تعرفين القراءة؟

صوفيا (ضاحكة): - عافاك الله. ها هي خادمتي قد

انخدعت مثلي. هذا ليس كتابًا، هذه علبة تلوين.

وفتحت صوفيا العلبة التي وجدتها الخادمة رائعة. وبعد أن تحدّثتا عما يمكن فعله اثناء النهار، قالت صوفيا إنها تريد أن تقدّم الشاي لأصحابها، لكن أمها لم تأذن لها بذلك.

صوفيا: - ماذا يمكنني أن اضع في ابريق الشاي وفي وعاء السكّر ووعاء الحليب؟ ألا تستطيعين يا خادمتي العزيزة، أن تساعديني قليلًا وتعطيني ما اقدّمه من الحلوى لأصدقائي؟

الخادمة:- كلّا يا حبيبتي؟ هذا مستحيل. تذكّري أن أمك قالت لي إنها ستطردني اذا أعطيتكِ لتأكلي م، تحرّمه هي عليك.

فتنهدت صوفيا وأخذت تفكر. وشيئًا فشيئًا أشرق وجهها اذ مرّت ببالها فكرة. وسنرى إن كانت هذه الفكرة صالحة. لعبت صوفيا ثم تناولت غداءها وعند عودتها من النزهة مع والدتها قالت إنّها ستحضّر ما يلزم

لاستقبال أصحابها قبل وصولهم. فوضعت علبة التلوين على طاولة صغيرة. وعلى طاولة أخرى رتّبت الفناجين الستة، وفي الوسط وضعت وعاء السكّر وابريق الشاي ووعاء الحليب. ثم قالت: والآن سأعدّ الشاي. فأخذت ابريق الشاي وذهبت الى الجنينة، ولمّت بعض اوراق الخبّازى ووضعتها في الابريق. ثم ملأت الصحن الذي يشرب منه كلب أمها ماءً وسكبت هذا الماء في ابريق الشاي. وقالت مسرورة: ها هو الشاي والآن سأصنع الحليب. وذهبت لتأخذ قطعة نسيج بيضاء تبلّها الخادمة بمنظّف الأواني الفضية فقحفت عنها بسكّينها قليلًا ممّا علق بها من المسحوق الابيض ووضعته في وعاء الحليب الذي ملأته ماءً من صحن الكلب وخلطته بالملعقة الصغيرة. وعندما ابيضّ الماء أعادت الوعاء الى الطاولة. ولم يبق سوى تعبئة وعاء السكّر. فأخذت قليلًا من منظف الفضية الابيض وهو على شكل قضبان، فكسرت بعض قطع بسكّينها وملأت وعاء السكّر ووضعته أيضًا

على الطاولة، ونظرت الى كل هذا بعين الرضى. وقالت وهي تفرك يديها فرحًا:

صوفيا: - هذا شاي ممتاز. أعتقد اني ذكية كثيرًا لتدبير الامر على هذه الصورة الرائعة. أراهن أن لا بولس ولا أيّ احد سواه يمكنه أن يصل مثلي الى هذا الاختراع العجيب.

وانتظرت صوفيا أصحابها مدة نصف ساعة. لكنها لم تضجر لأنها كانت مسرورة جدًا بشايها الذي لم تُرِدْ أن تفارقه وتبتعد عنه. فدارت حول الطاولة وهي تنظر اليها بفرح وتفرك يديها وتكرر القول: يا الهي، كم أنا فطنة، كم أنا ذكية!

أخيرًا وصل بولس وتبعته الصديقتان. فأسرعت صوفيا لاستقبالهم وعانقتهم جميعهم واخذتهم بسرعة الى غرفتها لتريهم أغراضها الجميلة. فخدعتهم أوّلًا علبة التلوين كما خدعت صوفيا وخادمتها. ووجدوا الشاي رائعًا. وأرادوا أن يبدأوا حالًا بالحفلة. لكن صوفيا طلبت منهم أن ينتظروا حتى الساعة الثالثة. فأخذوا كلهم

يلوّنون صور الدفاتر الصغيرة ، وقد تناول كل منهم دفترًا. وبعد أن تسلّوا طويلًا بالتلوين هكذا، ورتّبوا كل شيء في محله صاح:

بولس: - والآن جاء دور الشاي.

الفتيات: - نعم، نعم لنشرب الشاي.

كميليا: - عليكِ يا صوفيا أن تقومي بواجب الضيافة.

صوفيا: - اجلسوا جميعكم حول الطاولة. هكذا حسنًا. أعطوني فناجينكم لأضع فيها السكّر ثم الشاي ثم الحليب. والآن اشربوا!

مدلين: - غريب هذا السكّر انه لا يذوب.

صوفيا: - حرّكيه جيدًا فيذوب.

بولس: - لكن شايك بارد.

صوفيا: - لأنه مصنوع منذ وقت طويل.

كميليا: - (تذُوق الشاي ثم تبصقه بكَرَه) - ما أفظع

طعمه! ما هذا؟ انه ليس شايًا.

مدلين (تبصقه ايضًا): - هو كريه الطعم كأنه من الطبشور.

بولس (يبصقه بدوره): - ماذا قدّمتِ لنا يا صوفيا؟ هذا كريه، كريه جدًّا.

صوفيا (مرتبكة): - أهكذا تجدونه؟

بولس: - ماذا تقولين؟ أتجدينه غير ما وجدناه نحن؟ من الفظاعة أن تغشّينا هكذا. أنتِ تستحقين أن نجبرك على شرب شايك الكريه بكامله.

صوفيا (غاضبة): - انتم كلّكم ذوقكم صعب ولا شيء يعجبكم.

كميليا (باسمة): - اعترفي، يا صوفيا، وليس فينا من هو منحرف الذوق، بأن شايك رديء ومستحيل أن يشربه أحد.

مدلين: - أمّا انا فلم أذق في حياتي ما هو أكْره منه.

بولس (وهو يقدّم ابريق الشاي لصوفيا): - اشربي هذا، اشربيه. فتري أن ذوقنا ليس من الصعب ارضاؤه.

صوفيا (منزعجة): - اتركني، ولا تضايقني.

بولس (يواصل): - تقولين ان ذوقنا صعب. ان وجدتِ أنتِ شايك لذيذ، فاشربيه إذًا مع الحليب، هنيئًا.

وطوّق بولس خصر صوفيا. ثم صب لها الشاي في فمها. وكان ينوي ان يفعل ذلك ايضا بالحليب المزعوم، رغم صياح صوفيا وغضبها، عندما اشفقت عليها كميليا ومدلين الموجودتين بقربها. فهجمتا على بولس وانتزعتا من يده وعاء الحليب. لكن بولس الغاضب بدوره أبعدهما. واغتنمت صوفيا هذه الفرصة لتتخلص منه وتضربه بقبضة يدها. فحاولت كميليا ومدلين أن تمنعا صوفيا من ضربه. فزمجر بولس وصرخت صوفيا، وطلبت كميليا ومدلين النجدة، وقامت بينهم ضجة هائلة. فسمعتها أمهاتهم، فأسرعن خائفات. عند رؤيتهن هدأ

الاولاد وجمدوا بدون حراك. فسألت السيد دريان بلهجة تدلّ على القلق والقسوة:

السيدة دريان: - ماذا جرى؟

فلم يجب احد.

السيدة دفْلورْفيل، والدة كميليا: - اشرحي لنا يا كميليا موضوع هذا الشجار.

كميليا: - يا ماما، أنا ومدلين لا نتشاجر.

السيدة دفلورفيل: - كيف لا تتشاجران؟ أنت تمسكين بذراع صوفيا، ومدلين بساق بولس.

كميليا: - لاننا أردنا أن نمنع... اللعب بقوة زائدة.

السيدة دفلورفيل (نصف مبتسمة): - اللعب؟ أنتِ تسمّين هذا لعبًا؟

السيدة دريان: - أرى أن صوفيا وبولس كانا يتشاجران كالعادة. وأن كميليا ومدلين كانتا تريدان منعهما من التضارب. لقد حزرتُ أليس كذلك يا عزيزتي كميليا؟

كاميليا (بصوت خافت وهي محمرّة الوجه): - نعم يا سيدتي.

السيدة أوبار (والدة بولس): - ألا تخجل يا استاذ بولس من أن تتصرف هكذا؟ انتَ تغضب بدون سبب وتبدأ القتال.

بولس: - ليس بدون سبب، يا ماما. أرادت صوفيا أن تسقينا شايًا كريه الطعم، سبّب لنا وجع البطن، عندما ذقناه. ولأننا تذمّرنا قالت لنا إن ذوقنا صعب ولا يرضينا شيء.

فأخذت السيدة دريان وعاء الحليب وشمته، ثم ذاقته برأس لسانها فبدرت منها حركة اشمئزاز وكَرَه، وقالت لصوفيا:

الام (غاضبة): - من أين أتيتِ بهذه الفظاعة التي تدّعين انها حليب، يا آنسة؟

صوفيا (منخفضة الرأس، وفي غاية الخجل): - لقد صنعتها انا يا ماما.

الام: - صنعتها أنتِ، بماذا؟ أجيبي.

صوفيا (منخفضة الرأس): - بمنظِّف الفضية، وماء من صحن الكلب.

الام: - وكيف صنعت شايك؟

صوفيا (منخفضة الرأس): - من أوراق الخبّازي، وماء من صحن الكلب.

الام (تفحص وعاء السكّر): - لا شكّ في أن هذه وليمة فاخرة لأصحابك. ماء قذر وطبشور، وموادّ تنظيف. انك تباشرين سنتك الخامسة بعمل ظريف يا آنسة. انك لم تطيعي عندما منعتك من عمل الشاي وأردتِ أن تسقي رفاقك ما تسمّينه شايًا كريهًا، ثم أن تشاجري ابن خالتك. سأستردّ مجموعة الشاي وامنعك من اعادة مثل هذا الفصل المزعج. وكنت انوي أن ارسلك لتتعشّي في غرفتك لو لم أخف أن أَحرُم من بهجة العيد أصحابك الصغار العاقلين الذين لا يستحقّون

مشاركتك قصاصك.

وذهبت الامهات ضاحكات رغمًا عنهن من سخافة الوليمة التي اخترعتها صوفيا. فبقي الاولاد وحدهم: بولس وصوفيا خجلَيْن من عراكهما، لا يجرؤان على تبادل النظرات، وكميليا ومدلين تعانقانهما وتعزيانهما وهما تحاولان مصالحتهما. أخيرًا عانقت صوفيا بولس وطلبت السماح من الجميع وانطوى كل ذلك في عالم النسيان. فركض الاولاد الى البستان حيث أمسكوا بفراشات رائعة الأجنحة بألوانها الزاهية، فوضعها بولس في علبة غطاؤها من الزجاج. وامضى ما بقي من بعد الظهر في ترتيب العلبة لكي تكون الفراشات مرتاحة ضمنها. وقد وضع لها أعشابًا وأزهارًا وقطرات ماء مُحلّى بالسكّر وتوت أرضي (فريز) وكرز. وحين أقبل المساء وانصرف الجميع خبّأ بولس علبة الفراشات حسب طلب صوفيا وكميليا ومدلين اللواتي لاحظن أن من الواجب الاحتفاظ بها في مكان لائق بجمالها.



١٣

الذئاب

لم تكن صوفيا تطيع على الدوام، كما رأينا سابقًا في الحكايات التي قرأناها عنها. وكان عليها ان تغيّر هذه العادة القبيحة. ولكنها لم تتوصل تمامًا بعد. لذلك حدثت لها مشاكل أخرى أحزنتها كثيرًا. ففي اليوم التالي بعد اتمام صوفيا عامها الرابع، نادتها امها وقالت لها:

الام: لقد وعدتكِ، يا صوفيا، بأن آخذكِ معي عندما تكملين عامك الرابع، الى نزهاتي الطويلة المسائية. انا ذاهبة الى مزرعة «سفْتين» مرورًا بالغابة. ستأتين معي، فقط انتبهي أن لا تظلّي بعيدة ورائي. انتِ تعلمين أني

أمشي بعجلة. فاذا توقفتِ ربما بقيتِ مسافة خلفي، قبل ان ألاحظ تأخركِ عني.

فسرّ صوفيا أن ترافق أمها في مثل هذه النزهة الطويلة، ووعدتها بأن تتبعها عن قرب بدون ان تتمهل لئلا تضيع في الغابة الواسعة.

وصل بولس في تلك اللحظة فطلب أن يرافقها. ففرحت صوفيا بذلك ومشيا عاقلين مدة من الوقت وراء السيدة دريان تمامًا. وتسلّيا بمنظر الكلاب الضخمة تركض وتقفز، وقد أخذتها السيدة دريان معها.

عند الوصول الى الغابة قطف الولدان بعض الزهور الموجودة على حافة الطريق، لكن بدون ان يتوقّفا.

ولاحظت صوفيا على جانب الطريق وجود كميّة من ثمار توت الارض (الفريز) الشهيّة، فهتفت:

صوفيا – ما اجمل هذه الثمار اللذيذة! خسارة ان لا نستطيع الأكل منها.

سمعت امها هذا التحسّر، والتفتت ومنعت ابنتها من

التوقّف.

فتنهدت صوفيا، وتطلّعت بأسف الى هذه الفريزات الجميلة التي تشتهيها.

فقال لها:

بولس: - لا تنظري اليها، كي لا تظلّي تفكّرين فيها.

صوفيا: - انها حمراء وجذّابة وشهيّة وناضجة، ولا بدّ لها من ان تكون لذيذة.

بولس: - كلّما نظرتِ اليها، كلّما زادت رغبتك في قطفها. بما أن خالتي منعتكِ عن ذلك، فماذا تفيدكِ إطالة النظر اليها؟

صوفيا: - أريد أن أقطف واحدة فقط. وهذا لن يؤخّرني كثيرًا. إبقَ أنتَ معي وسنأكلها سوية.

بولس: - انا لا اريد ان أخالف طلب خالتي، وأن أَضيع في الغابة.

صوفيا: - لكن لا خطر هناك. ألا ترى أن ماما قالت

هذا لكي تخيفنا؟ سنجد طريقنا بسهولة اذا تأخّرنا عنها قليلًا.

بولس: - لا، لا. الغابة واسعة وكثيفة الاشجار. وربّما لا نستطيع أن نجد طريقنا.

صوفيا: - إفعل ما تريد يا جبان. اما أنا فذاهبة الى أقرب فريزات مثل التي شاهدتها قبل لحظة، وسآكل بعضًا منها.

بولس: - انا لست جبانًا، يا آنسة. وأنتِ شرهة وغير طائعة. فضيعي في الغابة اذا اردتِ. أما انا فأفضّل أن أُطيع خالتي.

وتابع بولس سيره وراء السيدة دريان التي كانت تمشي بعجلة وبدون أن تلتفت. وكانت كلابها تمشي حولها وامامها وخلفها.

وشاهدت صوفيا مكانًا آخر فيه توت أرضي (فريز) أجمل من الاول. فأكلت واحدة وجدتها لذيذة ثم ثانية

وثالثة. وجلست القرفصاء لتقطف بسهولة وعجلة. وكانت من حين الى آخر تلقي نظرة على أمها وعلى بولس المبتعدَيْن عنها. وظهر على الكلاب بعض القلق، فذهبت نحو الغابة وعادت واقتربت كثيرًا من السيدة دريان التي الْتفتت لتعرف سبب خوف الكلاب. فلاحظت في الغابة، من خلال اوراق الشجر، وجود عينين برّاقَتَيْن شرستَيْن. وسمعت في الوقت ذاته ضجة انكسار غصن وتطاير أوراق يابسة، وأدارت رأسها لتوصي الولدين بأن لا يظلّا سائرَيْن وراءها، وكم اشتد فزعها حين رأت بولس وحده!

فصاحت:

السيدة دريان: اين صوفيا؟

بولس: - ارادت ان تتأخّر لتأكل بعض الفريزات يا خالة.

السيدة دريان: - يا لها من فتاة عنيدة تعيسة. ماذا فعلتْ؟ بقربنا ذئاب مفترسة.

هيا نرجع لإنقاذها، اذْ لم يَفُت الأوان.

أسرعت السيدة دريان يتبعها كلابها وبولس المسكين المذعور الى حيث بقيت صوفيا. فلمحتها عن بعد جالسة وسط الفريز الذي كانت تأكل منه بهدوء. فجأة نبح الكلاب نباحًا قويًّا وهجمت بكل سرعتها نحو صوفيا. في تلك اللحظة مدّ ذئب ضخم رأسه في الغابة بحذر وعيناه تقدحان شررًا وقد كشّر عن انيابه الحادة الطويلة. وإذْ أبصر الكلاب، تردد في الاقتراب، وهو يظن ان لديه الوقت الكافي لكي يخطف صوفيا قبل وصول الكلاب اليه، ويجرّها الى داخل الغابة، ثم يفترسها. فيهجم عليها بقفزة عنيفة. لكن الكلاب أحسّت بالخطر على سيدتها الصغيرة، وقد حمّستها صيحات السيدة دريان وبولس، فضاعفت سرعتها، وهجمت على الذئب تمامًا عندما عضّ ذيل ثوب صوفيا ليجرّها الى قلب الغابة. وحين شعر الذئب بنهشات الكلاب أفلت صوفيا ودار عراك هائل بينه وبين الكلاب. وزاد خطر موقف الكلاب حين

جاء ذئبان لمساعدة رفيقهما، وقد كانا يتبعان السيدة دريان التي اخذت تركض هي أيضًا. لكن الكلاب تغلّبت على الذئاب الثلاثة التي سرعان ما ولّت هاربة.

جاءت الكلاب بعد ان أصابتها بعض الجروح وسالت منها الدماء لتلحس أيدي السيدة دريان والولدين اللذين ظلّا يرتجفان فزعًا اثناء العراك. فمسدت السيدة دريان الكلاب المخلصة، وتابعت سيرها وهي تمسك بيد كل واحد من الولدين، تُحيط بهم الكلاب المدافعة عنهم بشجاعة.

لم تقل السيدة دريان كلمة لصوفيا التي مشت بصعوبة، ورجلاها ترتجفان من شدّة الخوف. وكان بولس المسكين شاحب الوجه يرتجف هو أيضًا نظير صوفيا.

أخيرًا خرجوا من الغابة ووصلوا الى جوار ساقية فقالت:

السيدة دريان: - لنقفْ هنا، ونشربْ من هذا الماء العذْب البارد. لأننا بحاجة اليه كي ينعشنا بعد ما أصابنا

من الرعب.

فانحنت السيدة دريان الى الساقية لتشرب جرعة ماء ورشقت بالماء البارد وجهها وذراعيها. كذلك فعل الولدان، وقد بلّلت السيدة دريان رأسيهما بالماء.

فانتعش الجميع وهدأ روعهم.

نزلت الكلاب الى الماء، فشربت واغتسلت لتنظف جراحها، وتمرّغت في ارض الساقية، ثم خرجت من حمّامها منشّطة منتعشة.

بعد ربع ساعة من الاستراحة، نهضت السيدة دريان للذهاب. فمشى الولدان الى جانبها. وما لبثت أن قالت لصوفيا:

السيدة دريان: - هل صدّقتِ أن الحق كان معي يا صوفيا حين منعتك عن الوقوف؟

صوفيا: - نعم، نعم، يا ماما. أطلب منك السماح، لأني لم أطع كلامك. وانت يا بولس الطيب القلب آسف لاني دعوتك جبانًا.

السيدة دريان: - انتِ دعوته جبانًا وهل تعلمين انه عندما ركضنا نحوك هو الذي ركض قبلنا؟ وعندما هجم الذئبان الآخران لمساعدة رفيقهما، هل رأيت بولس مسلّحًا بعصى لمّها عن الطريق، وهو يركض، ثم هجم عليهما ليمنعهما من المرور، وانني أنا التي حملته بين ذراعيَّ لأمنعه من الذهاب ومساعدة الكلاب؟ وهل لاحظتِ أيضًا أنه طوال مدة المعركة، وقف أمامكِ ليمنع الذئب المهاجم من الوصول الينا؟ فانظري الى بولس لتري كم هو جبان.

عانقت صوفيا بولس وطبعت على خدَّيْه عشر قبلات. وهي تقول له:

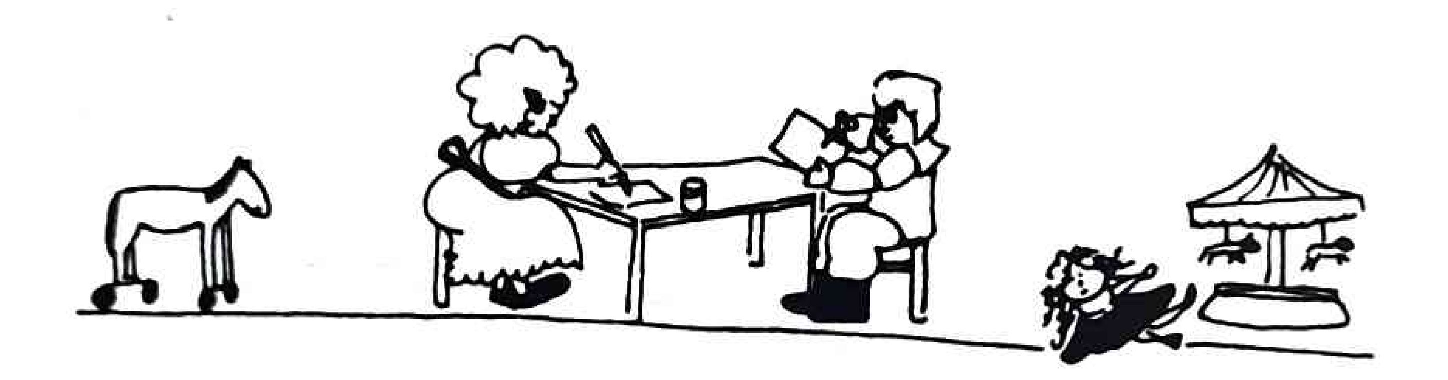
صوفيا: - أشكرك يا عزيزي بولس على طيبة قلبك، سأحبّك دائمًا من كل قلبي.

وعندما وصلوا الى البيت تعجب الجميع من شحوب وجوههم ومن تمزيق ثوب صوفيا الذي عضّ الذئب طرفه.

قصّت السيدة دريان المغامرة الهائلة، وامتدح الجميع بولس كثيرًا على طاعته وشجاعته، ولاموا صوفيا على عصيانها وشراهتها، وأُعجِبوا بأمانة الكلاب وبسالتها، ومسدوا جلدها، وقدّموا لها للعشاء عظامًا دسمة، وما بقي من لحوم العشاء.

في اليوم التالي قدّمت السيدة دريان لبولس بزّة عسكرية، ففرح بها كثيرًا ولبسها حالًا ودخل الى غرفة صوفيا. فصرخت من الخوف عندما رأت جنديًا على رأسه قبعة مزيّنة بريشة، يدخل وبيده سيف، وباليد الأخرى مسدّس، وزناره على خصره محشوّ خرطوشًا. لكن بولس أخذ يضحك ويقفز فعرفته صوفيا ووجدته رائعًا بهذه البزّة العسكرية.

لم تنل صوفيا أيّ قصاص على عدم طاعتها. لان امها افتكرت بأن ما اصابها من الفزع يكفي ليجعلها تتوب ولا تعيد الكرّة.



١٤

الخدّ المخدّش

كانت صوفيا سريعة الغضب، وهذا عيب فيها لم نتكلّم عنه بعد.

ذات يوم كانت تتسلّى بتلوين صور أحد دفاترها، بينما كان ابن خالتها بولس يقصّ ورقًا سميكًا ليصنع منه صحونًا للسلَطة وطاولات ومقاعد مستطيلة. وكانا كلاهما جالسَيْن الواحد مقابل الآخر. وكان بولس يهزّ الطاولة وهو يحرّك رجلَيْه. فقالت له صوفيا بلهجة قليلة الصبر:

صوفيا: - انتبهْ، يا استاذ، فإنك تهزّ الطاولة وتشوّش

علي التلوين.

فانتبه بولس مدة بضع دقائق، ثم نسي وعاد الى هزّ الطاولة برجلَيْه عن غير قصد. فصاحت به:

صوفيا: - انتَ لا تُطاق. قلت لك إنك تمنعني عن التلوين بإتقان.

بولس: - هه ها، وما أحلى ما تعملينه! أظن ان لا داعي لتتضايقي هكذا.

صوفيا: - انا اعرف جيّدًا ان لا شيء يضايقك انتَ. لكن بما انك تضايقني أرجوك أن تجمّد رجلَيْك.

بولس (بلهجة الساخر): - ان رجلَيَّ لا تحبّان البقاء جامدتَيْن. فهما تتحركان رغمًا عني.

صوفيا (مستاءة): - سأربط رجلَيْك المزعجتَيْن بحبل متين واذا واصلتَ تحريكهما سأطردك.

بولس: - جرّبي، وسترين ما تستطيع رجلاي ان تفعلاه عندئذ.

صوفيا: - هل تنوي ان ترفسني يا خبيث؟

بولس: - طبعًا، اذا ضربتني بقبضة يدك كعادتك.

فرشقت صوفيا الغاضبة بالماء وجه بولس الذي غضب بدوره، ورفس الطاولة وقلب كل ما عليها. فهجمت عليه وخدّشت له وجهه بشراسة حتى سال الدم من خدّه. فصرخ بولس. واذا بصوفيا، وقد فقدت وعيها تضربه بشدّة على بطنه وعلى ظهره. أمّا هو فلم يكن يريد أن يضربها. وفضّل أن ينسحب الى غرفة أخرى حيث أغلق الباب على نفسه. فطرقت صوفيا الباب مرارًا، ولمّا لم يفتح لها بولس، هدأت أخيرًا. وحين زال غضبها ندمت على ما فعلت، وتذكّرت أن بولس خاطر بحياته ليدافع عنها عندما هاجمتها الذئاب. فقالت:

صوفيا: - مسكين بولس، كم انا رديئة بحقه! ما العمل لكي لا أغيظه؟ أنا لا اريد ان أطلب منه السماح. اذ يضايقني طلب العفو. مع ذلك، أضافت قائلة، بعد أن فكّرت قليلًا، ان عدم طلب العفو هو عيب أشنع من

رداءة الطبع. وكيف يسامحني بولس إن لم أطلب أنا منه العفو؟

بعد أن فكّرت صوفيا قليلًا نهضت، وذهبت تدقّ باب الغرفة التي انفرد فيها بولس. ولكن هذه المَرّة بدون غضب وبدون اللجوء الى قبضة يدها، بل بكل لطف. ونادته بصوت ناعم: بولس، يا بولس. لكنه لم يردّ. فزادت قائلة بصوت رقيق: يا عزيزي بولس سامحني، أنا مستاءة لأنّي عاملتك بخشونة وحماقة. أؤكد لك اني لن أعيد الكرّة ابدًا.

فانفتح الباب على مهل، وظهر رأس بولس الذي نظر الى صوفيا بحذر وقال لها:

بولس: – ألا تزالين غاضبة؟ قولي لي انك لست الآن مستاءة.

صوفيا: – لا لا. طبعًا يا عزيزي بولس انا آسفة وحزينة لأنّي كنت خبيثة.

ففتح بولس الباب بأكمله. واذا بصوفيا ترفع اليه عينيها وتشاهد وجهه المخدَّش. فارتمت على كتفه، وعانقته قائلة:

صوفيا: - عزيزي بولس كم آلمتكَ! كيف خدّشتُ خدك؟ وما العمل لكي أشفيك؟

بولس: - هذا لا شيء، سيزول من تلقاء ذاته. هيّا نجلب طشْت ماء كي أغسل وجهي، فيزول الدم ولن يبقى له من أثر.

أسرعت صوفيا ومعها بولس، وجلبا ماءً في الطشْت. ولكن رغم ما سكب من الماء على وجهه ومسحه بالمنشفة، ظلّت علامات التخديش ظاهرة على خدّه. فتأثرت صوفيا وصاحت:

صوفيا: - ماذا ستقول الماما؟ ستغضب عليَّ وتقاصصني.

لكن بولس الذي كان قلبه رقيقًا للغاية حزن هو أيضًا.

ولم يعرف كيف يتصرّف لكي يحمي صوفيا من اللوم والتوبيخ الذي تستحقه. فقال لها:

بولس: - لا يمكنني ان أدّعي أني سقطت على الشوك، لأن هذا غير صحيح. لكن انتظري قليلًا وسترين.

واذا ببولس يذهب راكضًا وتتبعه صوفيا. ويدخلان كلاهما الى الغابة الصغيرة القريبة. فتوجّه بولس نحو شجيرات العليق وارتمى عليها وتمرّغ فيها بطريقة جعلت الشوك يلامس وجهه ويترك عليه بعض الآثار. ثم نهض وقد ازدادت الخدوش في وجهه.

عندما شاهدت صوفيا الدم يسيل ثانيةً من هذا الوجه البشوش زاد حزنها وبكت قائلة:

صوفيا: - انا سبب كل اوجاعك، يا عزيزي بولس. ولكي تخلّصني من القصاص فضّلت أن تزيد خدوش وجهك اكثر مما فعلتُهُ أنا عندما كنتُ غاضبة. كم أنتَ طيب القلب يا بولس وكم أنا أحبّك!

بولس: - هيّا نرجع الآن سريعًا الى البيت لأغسل وجهي من جديد. ولا تُظهري حزنك، يا عزيزتي صوفيا. أؤكّد لك أني لا أتألّم إلّا قليلًا، وغدًا يزول كل شيء. ان ما أطلبه منك هو أن لا تخبري أحدًا أنكِ أنتِ خدّشتِ وجهي واذا فعلتِ سأكون حزينًا جدًّا، ولن أنال مكافأتي على خدوش العليق. هل تعدينني بذلك؟

صوفيا: - أجل، قالت صوفيا وهي تعانقه. سأفعل كل ما تريد.

وعادا الى غرفة صوفيا وغسل وجهه بالماء من جديد لتنظيفه. وحين ذهبا الى قاعة الاستقبال صاحت والدتهما صيحة تعجُّب لدى رؤية وجه بولس المخدّش، والوارم قليلًا.

فسألت السيدة أُوبار، والدته:

السيدة اوبار: - أين وكيف حدث لك هذا؟ يا حبيبي بولس، يظهر عليك كأنك تمرّغت في الشوك.

بولس: - هذا بالضبط ما جرى لي، يا ماما، حين كنت أركض، وقعتُ على شجيرات العليق وأنا أحاول النهوض خدّش الشوك وجهي ويديَّ.

السيدة اوبار: - كنتَ قليل الانتباه في سقوطك على العليق، فتحتّم عليك أن تتخبّط في النهوض أو ان تنسحب على مهل.

السيدة دريان: - اين كنتِ أنتِ، يا صوفيا؟ كان عليكِ أن تساعديه في التخلّص من الشوك.

بولس: - كانت تركض خلفي، يا خالتي. فلم تستطع ان تساعدني. وعندما وصلتْ اليّ كنت انا قد نهضت.

اخذت السيدة اوبار ابنها بولس لتضع له على خدوشه مرهم الخيار. وظلّت صوفيا مع أمها التي كانت تتفحص وجهها بانتباه.

الام: - لماذا انتِ حزينة هكذا يا صوفيا؟

صوفيا (وهي تحمّر): - انا لست حزينة، يا ماما.

الام: - بلى أراك حزينة ومشغولة البال، كأن شيئًا غير مطمئن يدور في رأسك.

صوفيا: - (دامعة العين، مرتجفة الصوت) - لم أفعل شيئًا، يا ماما، لم أفعل شيئًا.

الام: - هل ترين كيف، وأنت تؤكّدين انك لم تفعلي شيئًا، تكادين أن تبكي؟

صوفيا: - (تشهق بالبكاء) - انا لا استطيع ان اقول لك. لقد ... وعدت ... بولس.

الام (تشدّ صوفيا اليها): - اسمعي يا صوفيا. إن كان بولس قد فعل ما هو قبيح، يجب عليك ان لا تفي بوعدك له بأن لا تتكلّمي. انا لا أعدك بأن لا أوبّخ بولس، وأن لا اخبر امه بذلك. لكني أريد أن أعرف ما هو سبب حزنك هذا، وماذا جعلك تبكين الآن بمرارة. يجب عليك أن تُعْلميني.

فخبأت صوفيا وجهها في حضن أمها، وبكت كثيرًا حتى انها لم تستطع ان تتكلم. وراحت أمها تهدّئ روعها وتشجّعها الى أن قالت أخيرًا:

صوفيا: - لم يفعل بولس شرًّا. بالعكس، ان ما عمله يدلّ على طيبة قلبه. انا وحدي كنت لئيمة، ولكي لا يتركني أنال التوبيخ والقصاص ذهب وتمرّغ على شجيرات العليق.

فزادت دهشة الام. وسألت صوفيا التي أخبرتها بكل ما جرى بينها وبين بولس. فصاحت:

الام: - حقًّا، ان بولس ولد نبيل الاخلاق. وما أطيب قلبه، وما أشجعه وأكرمه. أمّا أنتِ، يا صوفيا المسكينة، فما أبعد الفرق بينك وبين ابن خالتك. انظري كيف تتركين الغضب يسيطر عليك، وكم أنتِ قليلة الوفاء نحو بولس المحبّ الذي يسامحك دائمًا وينسى إساءتك والذي أظهر اليوم بالذات كرمه نحوك.

صوفيا: - نعم، يا ماما. أنا ارى كل ذلك جيدًا. وفي

المستقبل لن أزعج بولس أبدًا.

الام: – لن أزيد التوبيخ والقصاص على ما تشعرين به في قلبك من أسف. انت تتألّمين من أن يعلّمك ذلك أكثر مما أكرّره أنا عليك من النصائح. على كل حال كنت صريحة واعترفت بذنبك مع ذلك كنت تستطيعين أن تخفيه عني. هذا جيّد جدًّا، وأنا اسامحك لأجل صراحتك.

١٥

أليزابيت

كانت صوفيا جالسة يومًا على مقعدها الصغير، لا تفعل شيئًا بل تفكر. فسألتها:

الام: - بماذا تفكرين؟

صوفيا: - أفكّر بأليزابيت شينو، يا ماما.

الام: - ولماذا تفكّرين فيها؟

صوفيا: - لقد لاحظت يوم أمس خدشًا في ذراعها. وعندما سألتها عن سببه، احمرّت وخبّأت ذراعها، وقالت لي بصوت خافت: أسكتي، هذا قصاص. وانا احاول

الآن أن أفهم ما قصدتْ ان تقول.

الام: - أنا افسر لك ذلك. لأنّي انا ايضًا لاحظت الخدش. وقد حكت لي أمها ما فعلته. فاسمعي لأنّ ما ظهر من أليزابيت رائع للغاية.

ففرحت صوفيا لأنها ستسمع قصّة جميلة. وقرّبت مقعدها الصغير الى والدتها لتُصغي بصورة أفضل.

الام (تروي الحكاية): - أنتِ تعرفين أن أليزابيت طيبة القلب، لكنها، للأسف، سريعة الغضب. (فخفضت صوفيا عينيها). وكثيرًا ما تضرب خادمتها عندما تغضب ثم تندم على ذلك بعد قليل. لكنها لا تفكر إلّا بعد فوات الأوان، بدلًا من أن تفكّر عند اللزوم. أوّل من امس كانت تكوي ثياب دميتها وبياضاتها، وكانت الخادمة تضع لها المكواة على النار، خوفًا من أن تحرق اليزابيت يدها. فضايق اليزابيت ان تمنعها الخادمة كلّما أرادت أن تضع هي المكواة على النار. أخيرًا وجدت طريقة لتصل الى الموقد وجرّبت أن تضع المكواة عليه

عندما رأتها خادمتها، فسحبت من يدها المكواة، وقالت لها: بما انك لا تسمعين نصائحي يا أليزابيت، فلن تكوي أبدًا بعد اليوم. سآخذ المكواة وأضعها في الخزانة وأقفلها. فصرخت أليزابيت: أنا أريد مكواتي، أريد مكواتي.

الخادمة لويزا: - كلّا يا آنسة، لن تأخذيها.

اليزابيت (وهي غاضبة): - أنتِ خبيثة، يا لويزا. ردّي لي مكواتي.

الخادمة لويزا: - لن تأخذيها، وها أنا أخبّئها في الخزانة.

وسحبت لويزا المفتاح الذي قفلت به باب الخزانة. فازداد غضب أليزابيت، وأرادت ان تخطف المفتاح من يد خادمتها، لكنها لم تنجح. حينئذ خدّشت بشراسة ذراع لويزا الذي جُرِح وسال منه الدم. حالما رأت أليزابيت الدم أسفت وحزنت. فطلبت السماح من لويزا وقبّلت لها ذراعها، وغسلت لها جرحها. لكن لويزا

الطيبة القلب، حين رأتها حزينة متأسّفة أكّدت لها أن ذراعها لا يوجعها. فقالت:

اليزابيت (باكية): - لا، لا، أنا أستحقّ أن أتألم كما تتألمين. فاخمشي لي ذراعي كما خمشتُ انا لك ذراعك، يا خادمتي، حتى أتألم كما تتألمين.

الام: - تأمّلي جيدًا بأن الخادمة لم ترد أن تفعل بأليزابيت ما طلبت هذه الاخيرة أن تفعله بها. ولم تقلْ لها شيئًا، بل لاطفتها طوال النهار وذهبت لتنام بكل هدوء.

في اليوم التالي، حين نهضت الخادمة رأت دمًا على شرشف أليزابيت. وإذْ نظرت الى ذراعها رأته مخدوشًا بشكل فظيع، وصاحت:

الخادمة لويزا: - من جرحك هكذا، يا ابنتي المسكينة؟

اليزابيت: - أنا جرحت نفسي، لكي أقاصص ذاتي، لأنّي خدشتك يوم أمس، عندما تمدّدتُ على سريري

لأنام، فكّرت بأن العدل يفرض عليَّ أن أتألّم كما تتألّمين بسببي. فخدشت ذراعي حتى سال الدم منه.

الام: - فأشفقتِ الخادمة على أليزابيت وقبّلتها، خصوصًا لأنّها وعدتها بأن تكون عاقلة في المستقبل. هل فهمت الآن ماذا قالت لك أليزابيت، ولماذا احمرّ وجهها؟

صوفيا: - نعم ، يا ماما. فهمت جيدًا. ان ما فعلته أليزابيت رائع للغاية. أعتقد أنها لن تغضب أبدًا بعد الآن، لأنها تعرف أن ذلك قبيح كريه.

الام (وهي باسمة): - ألَا تفعلين أنت دائمًا ما تعرفين جيدًا انه قبيح؟

صوفيا (مرتبكة): - لكني، يا ماما أصغر منها سنًّا. أنا عمري اربع سنوات، وأليزابيت عمرها خمس سنوات.

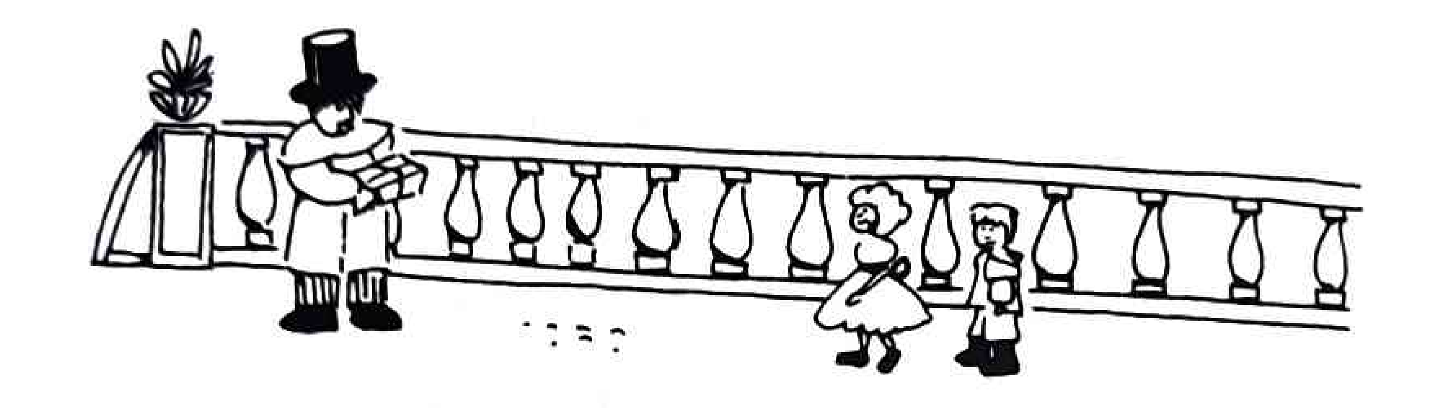
الام: - الفرق بينك وبينها ليس كثيرًا. تذكّري غضبك منذ ثمانية أيام على المسكين بولس اللطيف جدًا.

صوفيا: - هذا صحيح، يا ماما. لكني أعتقد على كل

حال، أني لن أعيد الكرّة، ولن أفعل ابدًا ما اعرف انه قبيح.

الام: - أرجو لك ذلك، يا صوفيا. لكن إيّاك أن تظنّي نفسك أحسن مما أنت عليه. فهذا يُسمّى كبرياء. وأنت تعرفين جيدًا أن الكبرياء رذيلة كريهة.

لم تجاوب صوفيا، بل ابتسمت برضى، يعني أنها ستكون حتمًا عاقلة على الدوام. لكن صوفيا بعد وقت قصير رأت نفسها مهانة. وهذا ما جرى لها بعد يومين.



١٦

مربّى الفواكه

كانت صوفيا راجعة من نزهة برفقة ابن خالتها بولس. كان في مدخل البيت رجل ينتظر، ويظهر عليه أنه سائق عربة سفر كبيرة وبيده صرّة. فسأله الولد بأدب:

بولس: - من تنتظر يا سيدي؟

الرجل: - أنا أنتظر السيدة دريان، يا سيدي، لأسلّمها هذه الصرّة.

صوفيا: - من قِبَل من؟

الرجل: - لست ادري، يا آنسة. انا واصل بعربة

السفر. والصرّة آتية من باريس.

صوفيا: - لكن، ماذا يوجد في الصرّة؟

الرجل: - أعتقد أن فيها مربّى الفواكه، ومعجون المشمش. هكذا مكتوب في سجلّ العربة.

فبرقت عينا صوفيا. ولحست شفتيها بلسانها، وقالت لبولس: هيّا نُعْلِم الماما.

وذهبت راكضة. بعد بضع لحظات وصلت الام، ودفعت أجرة نقْل الصرّة.

واخذتها الى القاعة حيث لحقت بها صوفيا ثم بولس. فدهشا عندما رأيا السيدة دريان تضع الصرّة على الطاولة وتعود الى مكتبها لا لتقرأ، بل لتكتب بدون أن تفتح الصرّة.

فما كان من صوفيا وبولس إلّا أن نظر كل منهما الى الآخر بحزن، ثم قالت:

صوفيا (بصوت خافت): - أطلب من الماما أن

تفتحها.

بولس (بصوت خافت): - لا أجسر لأن خالتي لا تحب ان نكون قليلي الصبر وفضوليّين.

صوفيا (بصوت خافت): - اسألها اذا كانت تريد أن نوفر عليها تعب فتحها، فنفتحها نحن عنها.

الام: - انا سامعة كل ما تقولينه، يا صوفيا. ليس أسوأ من الغشّ والاحتيال، والظهور بمظهر من يصنع الخير ويخدم الغير. أنت تريدين أن توفّري عليَّ التعب، بينما لا يدفعك الى فتح الصرّة عني سوى الفضول والشراهة. لو كنتِ قلتِ لي بصراحة: يا ماما، انا مشتهية أن أرى مربّي الفواكه، فاسمحي لي بأن أفتح الصرّة، لكنتُ أذنتُ لك بذلك. أما الان، فأنا أمنعك من أن تلمسيها.

فخجلت صوفيا وحزنت، وذهبت الى غرفتها يتبعها ابن خالتها الذي قال لها:

بولس: - انظري ما جرى لك عندما أردتِ ان

تتظاهري باللطف. أنت تريدين ان تدّعي بأنك عاقلة ولا تقولين سوى حماقات.

صوفيا: - لماذا لم تتكلم حالًا عندما طلبتُ منكَ ذلك؟ أنت تريد أن تكون دائمًا عاقلًا وأن لا تقول أية حماقات.

بولس: - أوّلًا أنا لا أقول حماقات. ثم أنا لا أتظاهر بأني عاقل. أنتِ الآن تقولين ذلك لأنكِ غاضبة من عدم رؤية مربّى الفواكه.

صوفيا: - أبدًا، يا استاذ. أنا لستُ غاضبة إلّا عليك. لأنّك دائمًا تسبّب لي التوبيخ.

بولس: - حتى يوم خدّشتني بقساوة؟

فاحمرّ وجه صوفيا خجلًا، وسكتت. وظلّا بعض الوقت لا يتكلّمان. لقد أرادت صوفيا ان تطلب السماح من بولس، لكن كبرياءها منعها من أن تتكلّم هي أوّلًا. أمّا بولس الطيّب القلب فلم يكن حاقدًا على صوفيا.

لكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ بالكلام. أخيرًا وجد طريقة بارعة: أخذ يهتزّ على كرسيه وانحنى كثيرًا الى الوراء حتى سقط. فأسرعت صوفيا الى مساعدته على النهوض. وقالت له:

صوفيا: - هل تألّمتَ، يا عزيزي بولس؟

بولس: - لا بالعكس.

صوفيا (ضاحكة): - كيف بالعكس؟ هذا غريب في الحقيقة.

بولس: - نعم لأني عندما وقعت، انتهت مشاجرتنا.

صوفيا (تعانقه): - يا عزيزي بولس الكريم، ما اطيب قلبك! اذًا وقعتَ قصدًا، وكنتَ أذيتَ نفسك.

بولس: - لا، كيف تريدين أن أُضرّ نفسي بسقوطي عن كرسي غير عالٍ هكذا؟ أمّا الآن، وقد صرنا صديقَيْن، فتعالَيْ نلعب.

وذهبا راكضَيْن ليلعبا. وعندما مرّا في القاعة رأيا أن

الصرّة لا تزال مربوطة. فشدّ بولس ابنة خالته صوفيا التي كانت تريد أن تتوقّف، ولم يفكّرا بعد ذلك في الامر.

حين انتهى العشاء، نادت السيدة دريان الولدَيْن قائلة:

الام: - سنفتح أخيرًا هذه الصرّة العجيبة ونذوق ما فيها من مربّى الفواكه. إذهبْ، يا بولس واجلبْ لنا سكّينًا لنقطع الخيط.

فمضى بولس كالبرق وعاد حالًا وبيده سكّين وقدّمه لخالته.

فقطعت السيدة دريان الخيط، ورفعت الورقة التي تغطّي المربّى واكتشفت انها تحوي اثنتي عشرة علبة مربّى ومعجون المشمش، ثم قالت وهي تفتح إحدى العلب:

الام: - سنتذوّقها ونرى إنْ كانت لذيذة الطعم. خذي قرصين، يا صوفيا، واختاري ما يعجبك اكثر من غيره. هذا إجاص، وهذا خوخ، وهذا جوز، وهذا مشمش، وهذا كبّاد، وهذه قراصية.

تردّدت صوفيا قليلًا، وفحصت أيّها الأكبر، وأخيرًا

قرّرت واختارت الإجاص والمشمش. واختار بولس الخوخ والقراصية. وبعد أن أخذ الجميع حصصهم، غطّت الام الصرّة، وهي لا تزال نصف ملأى، وذهبت بها الى غرفتها ووضعتها على رفّ عالٍ. وقد تبعتها صوفيا متخفّية حتى الباب.

عندما عادت السيدة دريان، قالت لصوفيا وبولس انها لن تستطيع ان تأخذهما معها الى النزهة، لأن عليها أن تقوم بزيارة إحدى جاراتها. فقالت لهما:

الام: – تسلّيا أثناء غيابي أو تنزّها وحدكما أو ابقيا أمام الباب كما تريدان.

ثم عانقتهما وصعدت الى العربة برفقة السيد والسيدة أوبار والسيد دريان زوجها. فبقي الولدان وحدهما ولعبا طويلًا أمام الباب. وكانت صوفيا تتكلم كثيرًا عن مربّى الفواكه.

صوفيا: – أنا مستاءة من عدم أخذي من القراصية ولا من الخوخ، وهما لذيذان طبعًا.

بولس: – نعم، هما لذيذان جدًا. لكن يمكنكِ أن تأكلي منهما غدًا. فلا تفكّري في المربّى، وتعالَيْ نواصل لعبنا.

وعادا الى اللعب الذي يخترعه بولس. فحفرا بركة صغيرة وملآها ماءً. لكن كان عليهما ان ينقلاه بصورة متواصلة، لأن الارض كانت تشرب كل ما يصبّانه في الحفرة. أخيرًا زلقت رجل بولس على الارض الرطبة واندلق ماء المرشّة بكامله على ساقَيْه.

بولس: – آه آه، ما أبرد الماء! لقد ابتلّت ثيابي. وعليَّ أن أذهب لأغيّر حذائي وجواربي وكل ملابسي. انتظريني هنا، سأعود بعد ربع ساعة. بقيتْ صوفيا قرب البركة تضرب وجه الماء بمجرفتها الصغيرة، وهي لا تفكّر لا بالماء ولا بالمجرفة، ولا حتى ببولس. فبماذا كانت تفكر اذًا؟ يا للاسف، كانت تفكّر فقط في مربّى الفواكه، وفي القراصية وفي الخوخ، وتأسف لأنّها لم تستطع ان تأكل منهما، ولا حتى ان تذوقهما.

ففكّرت: غدًا تعطيني الماما من المربىّ، ولن يكون لي الوقت الكافي للاختيار. لو استطعتُ ان أتفحّصه سلفًا لكنت قرّرت ما سآخذه غدًا. وماذا يمنعني عن مشاهدته الآن؟ وليس عليَّ سوى أن أفتح الصرّة. وفرحتْ صوفيا بهذه الفكرة، وركضت الى غرفة امها وحاولت الوصول الى الصرّة. لكنها مهما قفزت ومدّت يدها، لم تتمكّن من الوصول اليها. وهي لا تعرف ماذا تفعل لكي تطالها. هي بحاجة الى عصى او ملقط كبير أو أيّة واسطة أخرى. وفجأةً ضربت جبينها بيدها وصاحت:

صوفيا: – ما أغباني! سأقرّب مقعدًا وأطلع عليه.

فشدّت صوفيا مقعدًا ضخمًا ثقيلًا الى قرب الرفّ، وصعدت عليه، ووصلت الى الصرّة. ففتحتها بشوق وشهيّة الى مربّى الفواكه اللذيذة. وتساءلت أيًّا منها ستأخذ؟ ولم تستطع أن تقرّر، لأنها تارةً كانت تفضّل هذا وطورًا ذاك. ومضى الوقت، وقبل ان يرجع بولس بعد فترة، فكّرت:

صوفيا: ماذا سيقول لو رآني هنا؟ سيظن أني أسرق مربّى الفواكه. مع أني لم أفعل سوى المعاينة فقط. ها قد مرّت ببالي فكرة: ماذا يجري إن قضمتُ من كل قرص من مربّى الفواكه المختلفة قطعةً صغيرة جدًّا. فأعرف طعم جميعها وأعلم ما هو الألذّ بدون ان يراني أحد، لأني سأعضّ جزءًا صغيرًا من طرفها فلا يظهر ما أفعله.

وراحت صوفيا تنهش أوّلًا من القراصية ثم المشمش ثم الخوخ ثم الجوز ثم الإجاص ثم الكبّاد. ولكنها لم تقنع بعد. فقالت: يجب أن أعيد الكرّة، وأنا لا أقصد سوى أن أذوقها. وقد أكلتُ تقريبًا منها كلّها. ستلاحظ أمي ذلك حالما تفتح العلب، وتحزر أن هذا شغلي. فما العمل، ما العمل؟ استطيع ان أقول لها إنني لم افعل ذلك. لكنها لن تصدّقني. وإن قلت لها إن هذا من صنع الفئران؟ حقيقة منذ مدّة رأيت فأرًا يركض في الممشى. بلى سأقول ذلك لامي. بل الأفضل أن أقول لها ان هناك أحد الجرذان، لأن الجرذ أكبر من الفأر، ويأكل أكثر منه.

وبما أني اكلتُ تقريبًا من جميع أنواع المربّى، فالأنسب أن يكون هناك أحد الجرذان، من ان يكون أحد الفئران.

وفرحتْ صوفيا بهذه الفكرة. وأغلقت السلّة وأعادتها الى مكانها. ونزلت عن المقعد. وعادت الى الجنينة راكضة. وما كادت تصل وتمسك بمجرفتها حتى عاد بولس.

بولس: – لقد تأخّرت قليلًا. أليس كذلك؟ لأني لم أجد حذائي بسهولة. فقد أخذه أحد الخدم ليصبغه، وتطلعت في كل مكان قبل أن أسأل عنه. فماذا فعلتِ اثناء غيابي؟

صوفيا: – لا شيء أبدًا. كنتُ انتظرك، ولعبتُ بالماء.

بولس: – فأفرغتِ البركة. اذ ليس فيها الان نقطة واحدة من الماء. أعطني مجرفتك لكي أرصّ القعْر قليلًا وأجعله أصلب. واذهبي في هذه الاثناء لجلب الماء بهذا السطل.

فذهبت صوفيا لتجلب ماء، بينما راح بولس يشتغل في البركة. عندما رجعت صوفيا أعاد بولس اليها المجرفة وقال:

بولس: - ان مجرفتك موسَّخة كلها زفت يلصق بالاصابع، فماذا وضعت عليها؟

صوفيا: - لا شيء. لست أدري لماذا توسّخت هكذا.

وغطّست صوفيا يَدَيْها بقوة في المرشّة الملآنة ماءً لأنها لاحظت أن يديها أيضًا متّسختان زفتًا.

بولس: - لماذا تضعين يديك داخل المرشّة؟

صوفيا (وهي مرتبكة): - لأرى إن كان الماء باردًا.

بولس (ضاحكًا): - ما هذا الارتباك الذي يبدو عليك منذ رجوعي، كأنكِ فعلتِ أمرًا قبيحًا كعادتك؟

صوفيا (مضطربة): - ما الامر القبيح الذي فعلتُه؟ انظر اليَّ جيدًا. لن ترى أيّة قباحة. لا أعرف لماذا تقول إني فعلت أمرًا قبيحًا. أفكارك دائمًا سخيفة.

بولس: – ما لك تغضبين؟ ان ما قلته لكِ هو مجرد مزاح. أؤكّد لك أني لا أظن أنك عملت أَيّ امر سيِّئ، ولا لزوم لان تنظري اليَّ هكذا بانزعاج.

فهزّت صوفيا كتفَيْها، ثم أمسكت من جديد بمرشّتها، وصبّت الماء في البركة التي شرب رملها الماء بسرعة. لعب الولدان هكذا حتى الساعة الثامنة مساء. فجاءت الخادمة لأخذهما، إذْ حان وقت النوم. فقضت صوفيا ليلًا غير هادئ وحلمت بأنها واقفة بقرب الجنينة التي يفصلها عنها حاجز، هذه الجنينة الملأى بالازهار والفواكه الشهيّة. كانت تحاول أن تدخلها، لكن ملاكها الحارس كان يشدّها الى الوراء ويمنعها، قائلًا لها بصوت حزين:

الملاك: – لا تدخلي، يا صوفيا. لا تذوقي فواكهها، ولا تشمّي رائحة أزهارها الجميلة التي تفوح منها لأنها كريهة سامّة. هذه الجنينة هي حديقة الشرّ، دعيني آخذك الى جنينة الخير.

صوفيا: – لكن الدرب الذي يوصل اليها وَعْر تغطّيه

الأحجار المزعجة، بينما الطريق الآخر مفروش بالرمل الناعم الطريّ على الأقدام.

الملاك: - أمّا الدرب الوَعْر فيوصلك الى بستان السعادة. بينما الطريق الآخر السهْل، يوصلك الى عتمة الآلام والأحزان، وكل شيء فيه رديء مرعب. والناس الذين يسكنون هناك، أشرار فاسدون. فبدلًا من أن يُعزّوك، سيهزأون بأحزانك ويزيدون تعذيبك.

فتردّدت صوفيا، ونظرت الى البستان الجميل الملآن بالازهار والفواكه والى مماشيه المفروشة بالرمل، وبفيْء الاشجار، ثم ألقت نظرة على الطريق الوَعْر الخالي من أيّ أثر للنبات، ولا نهاية له. فرجعت الى الحاجز المنفتح أمامها. وإذْ أفلتت يدها من يد ملاكها الحارس، دخلت البستان. فصاح بها:

الملاك: - عودي، عودي، يا صوفيا. انا انتظرك عند الحاجز. وسأنتظرك حتى الممات فإن رجعتِ اليَّ يومًا، سآخذك الى بستان السعادة بواسطة الدرب الوَعْر الذي

ستجدينه أسهل كلّما تقدمتِ فيه.

لم تسمع صوفيا صوت ملاكها الحارس. اذ كان بعض الأولاد المرحين يؤشّرون لها كي تتقدّم، فركضت نحوهم، واحاطوا بها وهم يضحكون، وأخذ بعضهم يقرصونها، وبعضهم الآخر يشدّونها ويرشقون بالرمل عينيها ويحجبون عنها الرؤية بوضوح.

تخلّصت صوفيا منهم بصعوبة. وفيما هي تبتعد عنهم، قطفت زهرة جميلة جذّابة، ثم شمّتها ورمتها بعيدًا عنها، لأن رائحتها كانت كريهة جدًا. وواصلت سيرها. واذْ رأت الاشجار مثقلة بثمارها الشهيّة قطفت واحدة وذاقتها. لكنها رمتها بكراهية اكثر من الزهرة لأن طعمها كان مرًّا لا يُطاق. حزنت صوفيا قليلًا وتابعت نزهتها. لكنها انخدعت في جميع الامكنة، كما جرى لها مع الازهار والثمار. وبعد أن بقيت بعض الوقت في البستان حيث كان كل شيء فاسدًا، فكّرت في ملاكها الحارس، ورغم الوعود والنداءات المرغِّبة، أسرعت الى الحاجز

ولمحت ملاكها الحارس يفتح لها ذراعَيْه ويستقبلها بعطف ومحبة. فدفعت عنها الاولاد الأشرار، وارتمت بين ذراعَيْ ملاكها الحارس الذي شدّها الى الدرب الوَعْر. فأحسّت بأن الخطوات الأُولى صعبة، لكن كلّما تقدّمت أصبح الطريق سهلًا وبدا لها المكان جميلًا. قاربت ان تدخل بستان الخير، عندما استيقظت من نومها مضطربة، سابحة بعرقها المتصبب. ففكّرت طويلًا في هذا الحلم، وقالت:

صوفيا: - يجب ان أسأل أمي أن تفسّره لي.

ونامت من جديد حتى صباح الغد. حين ذهبت الى والدتها، وجدت نظرتها قاسية قليلًا. وكان الحلم قد أنساها مربّى الفواكه، فأخذت حالًا تحكيه لها.

الام: - هل تعرفين ماذا يعني هذا يا صوفيا؟ هذ معناه أن الله الذي يرى انك غير عاقلة، يحذّرك بواسطة هذا الحلم، واذا واصلتِ عمل الشرّ الذي يظهر لك سهلًا ومُرْضيًا، ستحزنين بدل ان تفرحي. فهذا البستان الذي يغرّك هو الجحيم، وبستان الخير هو الجنة التي نصل

اليها عن الدرب الوَعْر أيْ حرماننا من أشياء لذيذة ممنوعة. والطريق يصبح أسهل كلّما مشينا عليه أيْ كلّما كنا طائعين ولطفاء وصالحين. فنتعوّد ذلك، ولن نجد أيّة صعوبة بعد ذلك في ممارسة الطاعة وطيبة القلب، ولن نتألّم بسبب انجرافنا وراء شهواتنا التي توصلنا أحيانًا الى العذاب والهلاك.

تحركت صوفيا في كرسيها، واحمرّت خجلًا وهي تنظر الى والدتها. كانت تريد ان تتكلّم، ولكنها لم تكن قادرة على ذلك. أخيرًا عندما شاهدت السيدة دريان اضطرابها ساعدتها وقالت لها:

الام: - اراك تريدين الاقرار بشيء، لأنْ ليس من السهل الاعتراف بالذنب والخطأ. وهذا هو الدرب الوَعْر الذي دعاك ملاكك الحارس الى سلوكه، والذي أخافك السير عليه. يجب عليك، يا صوفيا، ان تصغي الى ملاكك الحارس، وان تمشي بشجاعة في الطريق الذي يدلّك عليه.

احمرّ وجه صوفيا اكثر فأكثر، وخبّأت عينيها بكلتا يدَيْها، وبصوت مرتجف اعترفت لوالدتها بأنها أكلت الليلة البارحة، تقريبًا من كل ما تحويه علبة مربّى الفواكه.

الام: - وكيف كنت تأملين أن تخفي هذا عني؟

صوفيا: - اردت ان أقول لك يا ماما، ان الجرذان أكلتها.

الام: - وأنا ما كنت صدّقتك ابدًا، كما تظنّين، لأن الجرذان لا تقدر على رفع غطاء العلب ثم إعادتها كما كانت. الجرذان كانت بدأت بتمزيق العلبة وقضمها للوصول الى مربّى الفواكه. ثم ان الجرذان ليست بحاجة الى تقريب المقعد حيث هو الآن للوصول الى الرفّ.

صونيا (متعجّبة):- هل رأيتني يا ماما، وأنا أجرّ المقعد؟

الام: - لقد نسيتِ أن تعيديه الى مكانه. هذا أوّل ما لاحظته عندما دخلت الى غرفتي. ففهمت أنكِ أنتِ،

خاصّةً بعد أن فحصتُ السلّة ووجدتها تقريبًا فارغة. هل رأيتِ انك حسنًا فعلتِ باعترافك لي بذنبك؟ لأن كذبكَ ما كان إلّا ليزيد قساوة القصاص الذي تستحقّينه وأفرضه عليكِ.

لكن مكافأةً لك على جهدكِ في اعترافك بحقيقة ما جرى، لن يكون قصاصك سوى ان تأكلي ما بقي من مربّى الفواكه.

فقبّلت صوفيا يد امها التي عانقتها. ثم صعدت الى غرفتها حيث كان بولس ينتظرها للعشاء.

بولس: - ما بكِ، يا صوفي؟ أرى عيونكِ حمراء.

صوفيا: - لأنّي بكيت.

بولس: - ولماذا؟ هل وبّختك والدتك؟

صوفيا: - كلّا. لكني خجلت من اعترافي لها بعمل قبيح فعلته يوم أمس.

بولس: - وما هو هذا العمل القبيح؟ انا لم أبصر

شيئًا.

صوفيا: - لقد اختبأت كي لا تراني.

وحَكَت صوفيا لبولس كيف أكلت بشراهة أكثريّة مربّى الفواكه، بعد أن ارادت فقط أن تشاهدها. وتختار أحسنها لتأخذها في اليوم التالي.

امتدح بولس سلوك صوفيا كثيرًا لأنها اعترفت لأمها بصراحة، وقال لها:

بولس: - من أين أتتكِ هذه الشجاعة؟

فقصّت صوفيا عليه حلمها، وكيف فسّرته لها أمها. ومنذ ذلك اليوم تكلمت صوفيا وكذلك بولس مرارًا عديدة عن هذا الحلم الذي ساعدها على ممارسة الطاعة وطيبة القلب.

١٧

الهرّة والحسّون

كانت صوفيا تتنزه يومًا برفقة بولس والخادمة. وكانوا عائدين من زيارة امرأة فقيرة حملوا اليها بعض النقود. كانوا يمشون على مهل تارةً يبحثون عن شجرة يتسلّقونها، وطورًا يجتازون السياجات، ويختبئون بين الشُجيرات. كانت صوفيا تختبئ وبولس يبحث عنها، حين سمعت صوت مواء ضعيف متألّم. فخافت الفتاة وخرجت من مخبإها، وقالت لبولس:

صوفيا: - هيّا بنا نناديِ خادمتي. فقد سمعتُ صرخة كأنها صوت هرّة تموء بقربي بين الشُجيرات.

بولس: - لماذا ننادي خادمتك؟ نحن نرى ما في الامر.

صوفيا: - لا لا، انا خائفة.

بولس (ضاحكًا): - خائفة، ممّا أنتِ خائفة؟ تقولين ا الصوت ضعيف. فليس هناك اذًا حيوان كبير.

صوفيا: - لست أدري. ربّما هي حيّة أو ذئب صغير.

بولس (ضاحكًا): - هه هه ها. هل الحيّة تصيح؟ هذا جديد! وهل كان بقربك ذئب صغير يصيح بنعومة؟ أنا لم اسمعه.

صوفيا: - ها هو الصياح ذاته يتكّرر. هل سمعته؟

فأصغى بولس وسمع فعلًا صوت مواء ضعيف يخرج من بين الشُجيرات. فركض نحو مصدره رغم رجاء صوفيا بأن لا يفعل.

بولس: - هذا صوت هرّة صغيرة كأنها مريضة. صاح الفتى بعد أن بحث مدة بضع لحظات. تعالَيْ انظري كم

هي تعيسة.

فأسرعت صوفيا ورأت هرّة صغيرة بيضاء بلّلها الندى وهي ملطّخة وحلًا ومتمدّدة قرب المكان الذي اختبأتْ فيه فقالت:

صوفيا: - يجب ان نادي خادمتي لكي تخرجها. مسكينة هذه الهرّة، انها ترتجف.

بولس: - كم هي ضعيفة هزيلة!

فناديا الخادمة التي كانت تتبعهما عن بعد. وعندما وصلت اليهما أرياها الهرة الصغيرة وطلبا منها أن تحملها.

الخادمة: - ولكن كيف أحملها؟ وهي هرّة هزيلة مبلّلة قذرة؟ أنا لا استطيع حملها بيدي.

صوفيا: - لفّيها اذًا بورقة، يا خادمتي.

بولس: - حسنًا. لننشّفها أوّلًا بمنديلي، ولنمدِّدْها بعد ذلك على منديلك، فتحملها خادمتك.

ساعدتهما الخادمة على تنشيف الهرّة الصغيرة التي لم

تكن تستطيع أن تتحرّك.

وعندما لفّاها بالمنديل حملتها الخادمة واستعجل الجميع في السير للوصول الى البيت حيث قدّموا لها قليلًا من الحليب الساخن.

لم يكونوا بعيدين عن المنزل فوصلوا سريعًا. وركضت صوفيا مع بولس نحو المطبخ. فقالت الفتاة للطبّاخ:

صوفيا: - أعطِنا فورًا فنجانًا من الحليب الساخن.

الطبّاخ: - لماذا يا آنسة؟

صوفيا: - لهرّة صغيرة مسكينة، وجدناها في السياج شبه ميتة من الجوع، ها هي خادمتي تحملها بالمنديل.

فوضعت الخادمة المنديل على الارض، وجاء الطبّاخ بصحن حليب ساخن للهرة التي هجمت عليه ولعقته بكامله غير تاركة قطرة واحدة منه.

صوفيا: - والآن ها هي تنهض وتلحس جلدها.

بولس: - ما رأيك لو أخذناها الى غرفتك؟

الطبّاخ: - أنصحكما، يا سيدي ويا آنستي، ان تتركاها في المطبخ، أوّلًا لأنها تنشف هنا بسرعة قرب الرماد الدافئ، ثم لأنها ستجد هنا ما تأكله عندما تريد، أخيرًا لأنها تستطيع أن تخرج عند الحاجة، وتتعلم هكذا أن تظل نظيفة.

بولس: - هذا صحيح. لنتركها في المطبخ، يا صوفيا.

صوفيا: - لكنها ستظل دائمًا لنا، وسأراها كلّما أردت ذلك.

الطبّاخ: - طبعًا يا آنسة، سترينها متى أردتِ. فهي لكِ على كل حال.

فأخذت الهرّة ووضعتها قرب الرماد الدافئ تحت الفرْن. فتركها الولدان تنام، وأوصيا الطبّاخ أن يضع لها حليبًا بجانبها لتلعقه كلّما أحست بالجوع.

صوفيا: - كيف نسمّي هذه الهرة؟

بولس: - نسمّيها «حسناء».

صوفيا: - لا لا هذا اسم كثير الانتشار. سندعوها «حلوة».

بولس: - وعندما تكبر ستصبح بشعة.

صوفيا: - هذا صحيح. وكيف ندعوها اذًا؟ على كل حال يجب ان يكون لها اسم، نناديها به.

بولس: - هل تعرفين اسمًا جميلًا حقًّا؟ ما رأيكِ باسم «رائعة»؟

صوفيا: - نعم كما في قصة الفتاة الشقراء. هذا صحيح. سيكون اسمها «رائعة» وسأطلب من والدتي أن تصنع لها عقدًا صغيرًا وأن تطرّز عليه اسم «رائعة».

وأسرع الولدان الى السيدة دريان لكي يرويا لها حكاية الهرّة الصغيرة. ثم طلبا منها عقدًا. فذهبت الأمّ لترى الهرّة، وأخْذ قياس رقبتها، وقالت:

الام: - لست أدري اذا كانت هذه الهرة ستعيش. لأنها نحيلة جدًا، وضعيفة تكاد لا تقوى على الوقوف

على قوائمها.

بولس: - ولكن، من أين جاءت الى السياج؟ ان الهرة لا تعيش في الغابات.

الام: - ربما أخذها أولاد أشقياء ليلعبوا بها، ثم رموها في السياج وهم يظنّون أنها تستطيع الرجوع وحدها الى البيت.

صوفيا: - لماذا اذًا لم ترجع؟ فالذنب ذنبها أن تكون في هذه الحالة التعيسة.

الام: - إنها أصغر سنًّا من أن تجد طريقها. ثم ربّما جاءت من مكان بعيد.

اذا أراد بعض الرجال أن يأخذوك بعيدًا ويتركوك في إحدى زوايا الغابة، ماذا تفعلين؟ هل تعتقدين أنك تتمكنين أن تجدي طريقكِ وحدكِ؟

صوفيا: - لن أرتبك أبدًا. أمشي، وأمشي حتى أُلاقي أحدًا أو أشاهد بيتًا. حينئذ أعلن اسمي لأصحابه،

وأطلب منهم أن يرجعوني الى البيت.

الام: - أَوّلًا، ربّما لا تصادفين إلّا أناسا أشرارًا لا يريدون أن يبتعدوا عن طريقهم أو عملهم وينزعجوا ليرجعوك. ثم أنتِ يمكنك أن تتكلّمي ويفهم الناس قولك. لكن الهرّة الصغيرة لو دخلت الى البيت، هل تظنّين ان أصحابه يفهمون ما تريد أو يعرفون أين تسكن؟ على الأرجح إنهم يضربونها ويطردونها، وربّما يقتلونها.

صوفيا: - لكن، لماذا ذهبتْ الى تلك الشُجيرات؟ ألِكيْ تموت جوعًا؟

الام: - ربّما رماها الأولاد الأشرار هناك بعد أن ضربوها وعذّبوها. على كل حال، لم تكن الهرّة غبيّة الى هذه الدرجة في بقائها حيث كانت، بما أنك مررت بجانبها ولم تخلّصيها.

بولس: - أَلَا يجوز، يا خالتي، أن لا تحزر الهرّة أننا سنمر من هناك؟

الام: - هي لا يمكنها أن تحزر. لكن الله الذي يعلم ذلك، قد هيّأ لكم الفرصة لتصنعوا المعروف حتى مع الحيوان.

اما صوفيا وبولس فكانا مشتاقين لرؤية الهرة فلم يقولا كلمة. وعادا الى المطبخ حيث وجدا «رائعة» تنام نومًا عميقًا قرب الرماد الدافئ. وقد وضع لها الطّباخ بقربها صحنًا ملآن حليبًا. ولم تكن بحاجة الى شيء. فذهب الولدان يلعبان في الجنينة. لم تمت «رائعة»، وبعد أيام رجع اليها نشاطها.

وكانت كلما كبرت تزداد حلاوة، وجلدها الابيض الناعم يزداد جمالًا، وعيناها السوداوان تلمعان كالشمس، وانفها الوردي يزيد لطفًا. انها هرّة من أجود الانواع المدعو «أنقرا». وبولس الذي يأتي في أغلب الاحيان لقضاء بضعة ايام مع صوفيا كان يحب الهرّة أيضًا. لان «رائعة» كانت أسعد الهرّات. انما كان لها علّة تأسف لها صوفيا، وهي أنها كانت متوحّشة مع

العصافير. فحالما تكون خارج البيت تتسلّق الأشجار وتفتش عن الأعشاش لتأكل الفراخ الموجودة فيها. وفي بعض الاحيان كانت تأكل العصافير الأمّهات التي كانت تدافع عن صغارها وتحميها من «رائعة» الشريرة. فعندما كانت صوفيا مع بولس، ويشاهدانها تتسلّق الأشجار، كانا يعملان كل ما بوسعهما لإنزالها. لكن «رائعة» لم تكن تطيعهما، بل تتابع تسلّقها الشجرة وأكلها العصافير الصغيرة التي كانت صيحاتها وهي خائفة ترتفع مستنجدة: كُوي، كُوي كُوي، بدون فائدة. وحين تنزل رائعة عن الأشجار، كانت صوفيا تضربها بالقضيب. لكن الهرة كانت تلاقي طريقة للتخلّص من ضرب صوفيا، فتبقى مدّة طويلة في أعلى الشجرة حتى لا تطالها صوفيا. في مرة أخرى، عندما تصل الى منتصف الشجرة، كانت تقفز الى الارض وتهرب بسرعة، قبل ان يمسك بها احد. فكان الولدان يقولان لها: إحذري يا «رائعة». سيقاصصك الله على شراستك،

وسيصيبك الأذى في يوم من الايام.

لكن رائعة لم تكن تصغي اليهما.

ذات يوم جاءت السيدة دريان الى قاعة الاستقبال بعصفور جميل ضمن قفص مذهّب بديع الصنع، وقالت:

الام: - أنظرا يا عزيزيَّ، كم هو جميل هذا الحسون الذي أرسله اليّ احد الاصدقاء! انه ينشد بصوت لا أحلى منه.

صوفيا وبولس معًا: - كم أريد أن أسمعه!

الام: - سأجعله ينشد. لكن لا تقتربا كثيرًا منه لكي لا تُفزعاه. وطلبت السيدة دريان من العصفور قائلة: أَسمِعْنا صوتك يا صديقي الصغير، هيّا أسمِعْنا صوتك الجميل.

فراح الحسّون يتمايل ويحني رأسه الى اليمين والى اليسار. ثم أخذ يصفر لحنًا جميلًا حنونًا. وعندما انتهى بدأ ينشد لحنًا آخر يشبهه.

فأصغى اليه الولدان بدون حراك. وكادا يحبسان انفاسهما لكي لا يخيفا الحسّون. وحين انتهى من الغناء صاح الولد:

بولس: - كم غناؤه لذيذ، يا خالتي! وكم صوته حلو. أريد أن أسمعه على الدوام.

الام: - سأجعله يعيد أناشيده بعد العشاء. هو قادم من السفر، وقد اتعبه طول الطريق. أعطِياه بعض الأكل. واذهبا الى الجنينة، يا ولديَّ، واجلبا لي قليلًا من البقْلة والريحان. سيريكما البستاني أين توجد. فأسرع الولدان الى البستان، وعادا بكمية ممّا طلبته منهما الأم، تملأ القفص بكامله. فقالت لهما أن لا يقطفا في المرة القادمة سوى كميّة صغيرة فوضعا قليلًا مما جلباه، في قفص الحسون الذي بدأ حالًا ينقده. ثم قالت:

الام: - هيّا الآن يا ولديَّ الى العشاء لأن أبويكما في انتظارنا.

أثناء العشاء تكلم الجميع كثيرًا عن الحسّون الجميل.

بولس: - ما أبهى لونه الأصفر، وما أرشق قفْزه في القفص!

السيدة دريان: - وما أروع صوته!

السيد دريان: - يجب ان نجعله يشدو جميع ألحانه.

حالًا بعد العشاء عاد الجميع الى قاعة الاستقبال، وقد سبق الولدان أهلهما راكضَيْن. عند الدخول الى القاعة سمعت السيدة دريان صوتًا مزعجًا. فأسرعت الى مصدره ووجدت الولدَيْن جامدَيْن من الخوف يشيران باصبعهما الى قفص الحسّون. ففي هذا القفص كانت عدة قضبان ملتوية ومتباعدة، وكانت الهرّة «رائعة» منبطحة على الارض، والحسّون المسكين بين أنيابها لا يزال يحرّك جناحيه الصغيرَيْن. فصرخت السيدة دريان بدورها وهجمت على «رائعة» لتجبرها على ترْك العصفور. لكن الهرّة هربت به واختبأت تحت مقعدٍ

كبير. فأخذ السيد دريان الذي دخل في هذه اللحظة ملقطًا كبيرًا وأراد أن يضرب به الهرّة. لكنها قفزت بلمح البصر نحو الباب المفتوح. فلحق بها السيد دريان من غرفة الى غرفة، ومن ممشى الى آخر. بينما لم يعد أحد يسمع بعد ذلك صوت العصفور الذي لم يستطع التحرك. أخيرًا توصل السيد دريان الى ضرب رائعة بالملقط الطويل وكانت الضربة شديدة الى درجة جعلتها تفتح فمها وتترك العصفور يفلت من أنيابها. وحينما وقع الحسّون من جهة، سقطت «رائعة» من جهة اخرى.

فارتجفت مرتين أو ثلاث مرات، ثم جمدت تمامًا. لان الملقط أصاب رأسها بقوّة فماتت.

ظلت السيدة دريان مع الولدين، يتبعون السيد دريان، وهذا الاخير يلحق بالهرة والحسّون، حتى وصلوا جميعهم عند اللحظة التي ارتجفت فيها رائعة ولفظت أنفاسها الاخيرة.

فصاحت صوفيا متأثرة: - رائعة، يا رائعة المسكينة!

وصاح بولس: - الحسّون، مسكين هذا الحسّون!

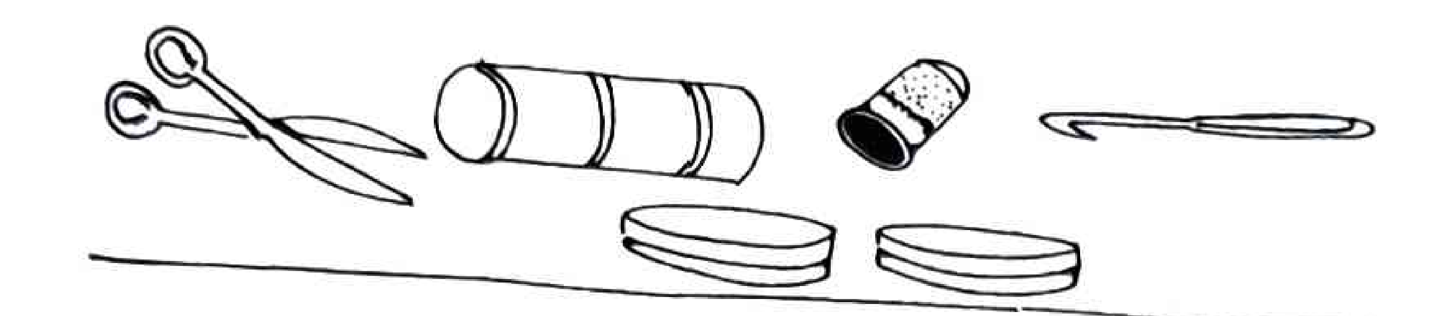
فقالت السيدة دريان: - ماذا فعلتَ يا صاحبي؟

فأجابها السيد دريان: - قاصصت المذنب. لكني لم استطع انقاذ البريء المظلوم.

فالحسّون قد مات وهو بين أنياب «رائعة» التي لن تتمكن من قتل أي عصفور بعد الآن لأني قضيت عليها بدون قصد.

لم تجرؤ صوفيا على قول كلمة. لكنها بكت بكاءً مرًّا لموت الهرّة المسكينة التي كانت تحبّها رغم نقائصها. وقالت لبولس:

صوفيا: - لقد قلت للهرّة مرارًا إن الله سيقاصصها على شراستها نحو العصافير. أسفي عليك، يا «رائعة». ها قد متِّ، وانتِ سبّبت الهلاك لنفسك.



١٨

علبة الشغل

كانت صوفيا حين ترى ما يعجبها وتشتهي اقتناءه، تطلبه من امها. فاذا رفضت الام ان تعطيها اياه، كانت تلحّ في طلبه مرارًا عديدة حتى تتضايق منها وترسلها الى غرفتها. عندئذ بدلًا من ان تكفّ عن التفكير فيه، كانت تظلّ تفكرّ وتكرّر قولها:

صوفيا: - كيف العمل للحصول على ما أريد؟ اني متشوِّقة اليه كثيرًا، ويجب أن أحاول بكل الوسائل لامتلاكه.

في كثير من الاحيان، لأجل الحصول على ما ترغب

فيه، كان القصاص نصيبها. لكنها لم تتمكّن من اصلاح نفسها.

ذات يوم نادتها والدتها وأرتها علبة شغل ابرة جميلة، أرسلها السيد دريان من باريس. وكانت العلبة مزيّنة بالصدف والذهب، وداخلها مبطّن بالمخمل الأزرق، وجميع الادوات فيها مذهّبة. وكان فيها كشتبان ومقص وسكّين وملقط صغير ومسلّة، وفي قسم آخر منها علبة إبر وعلبة دبابيس، وكميّة من خيوط الحرير من جميع الالوان، وخيوط مختلفة الرِفْع، وبريم وشريط الخ. فصرخت الابنة متعجّبة لجمال العلبة:

صوفيا: - كم هذه العلبة جميلة، وكم استعمالها مفيد! لمن هذه اللوازم، يا ماما؟

ثم أضافت قولها بابتسام، كأنها واثقة بأن أمها ستقول لها: هي لك يا حبيبتي.

الام: - لقد أرسلها والدك لي انا.

صوفيا: – خسارة. كم كنتُ أودّ ان تكون لي!

الام: – أشكركِ يا ابنتي. انتِ غير راضية بأن امتلك انا مثل هذه العلبة الجميلة. هذا نوع من الانانيّة ليس غريبًا عنك.

صوفيا: – أرجوك ان تعطيني إيّاها.

الام: – انت لا تشتغلين بعد كما يجب لتحصلي على مثل هذه العلبة الحلوة. ثم انت غير مرتّبة كما يلزم لتحافظي عليها سالمة. لا تضعين شيئًا في محله بل تضيّعين كل أغراضك الواحد بعد الآخر.

صوفيا: – لا، لا، يا ماما. أؤكّد لكِ أني سأعتني بها كما يجب.

الام: – لا يا صوفيا. لا تفكّري فيها. انتِ لا تزالين صغيرة جدًّا.

صوفيا: – لقد بدأت اشتغل جيّدًا، يا ماما، وانا أحب شغل الإبرة كثيرًا.

الام: - حقيقةً؟ فلماذا اذًا أجدك حزينة عندما أُجبرك على أن تشتغلي؟

صوفيا (مرتبكة): - لأني، لأني... لا أملك ما أحتاج اليه لأشتغل. لكن اذا أعطيتني هذه العلبة سأشتغل بكل سرور... ولذّة.

الام: - إجتهدي أن تشتغلي بسرور بدون علبة. وهذه أحسن طريقة لكي تحصلي على واحدة قريبًا.

صوفيا: - أرجوكِ، يا ماما، أرجوكِ.

الام: - لا تضايقيني، يا صوفيا. إجتهدي أن لا تفكري الآن في العلبة.

فسكتت صوفيا. وظلّت تنظر الى العلبة باشتياق. ثم طلبتها من أمها اكثر من عشر مرّات. فما كان من الأم في كل مرّة، وقد فرغ صبرها، إلّا ان ترسلها الى الجنينة لتلعب.

لكن صوفيا لم تلعب ولم تتنزه، بل بقيت جالسة على

المقعد الخشبي الطويل، وهي تفكّر في العلبة، وكيف تجد حيلة للحصول عليها.

فقالت في سرّها، لو كنتُ أعرف الكتابة، لكتبت لأبي كي يرسل لي واحدة تشبهها تمامًا. لكني لا أعرف الكتابة بعد. واذا طلبت من امي ان تكتب عني ستوبّخني، ولن تكتب. عليّ اذًا ان انتظر رجوع والدي. لكن ما اطول الانتظار، وانا أريد الحصول على العلبة حالًا.

فكّرت صوفيا، وفكّرت طويلًا. أخيرًا قفزت من مقعدها وفركت يديها فرحًا وصاحت: وجدتُ، وجدتُ، ستكون العلبة لي.

ها هي صوفيا تعود الى قاعة الاستقبال حيث بقيت العلبة على الطاولة. ولم تكن أمها هناك. فتقدّمت صوفيا بحذر، وفتحت العلبة، وسحبت منها واحدًا فواحدًا جميع اللوازم التي كانت تملأها. وكان قلبها يدقّ بسرعة لانها تسرق مثل اللصوص الذين يدخلون السجن.

كانت خائفة من أن يفاجئها أحد قبل ان تنهي عملها. لكن لم يأتِ أحد، فتمكّنت صوفيا من أخْذ كل ما في العلبة. بعد ذلك أغلقتها بهدوء وأعادتها الى مكانها على الطاولة، وذهبت الى غرفة أخرى حيث توجد ألعابها ومفروشاتها الصغيرة. ففتحت درج طاولة ووضعت فيه جميع ما أخذته من علبة والدتها.

عندما لا تجد أمي سوى العلبة الفارغة، قالت صوفيا في سرّها، سترضى بأن تعطيني اياها. حينئذ أُرجع كل الادوات الى محلها، وتكون العلبة بكاملها قد أصبحت لي.

وفرحت صوفيا بتحقيق هذا الأمل، ولم تفكّر في لوم نفسها على ما فعلت من قبيح، بل تساءلت: ماذا ستقول أمها؟ من ستتهم بسرقة لوازمها؟ وبماذا أجيب حين تسألني اذا كنتُ أنا أخذتها. لم تفكّر صوفيا إلّا بسرورها للحصول على العلبة.

طوال قبل الظهر مضى بدون أن تلاحظ الوالدة سرقة

ابنتها صوفيا. لكن ساعة العشاء، عندما وصل الجميع الى القاعة، قالت السيدة دريان لضيوفها انها ستريهم علبة شغل ابرة جميلة جدًّا أرسلها اليها زوجها من باريس. فجلبتها وأضافت قائلة: انظروا أوَّلًا الى العلبة ذاتها كم هي أنيقة وبديعة. فقال لها الجميع: حقًّا هي حلوة.

ثم فتحتها السيدة دريان. وكم كانت دهشتها ودهشة الحاضرين عظيمة إذْ وجدوا العلبة فارغة.

ما معنى هذا؟ صاحت السيدة دريان. هذا الصباح كانت كل اللوازم في داخلها ولم ألمسها بعد ذلك. فسألتْها السيدات المدعوات : هل تركتِها في قاعة الاستقبال؟

السيدة دريان: - طبعًا وبدون أيّ قلق عليها. لأنّ جميع خدامي أُمناء لا يسرقون.

إحدى السيدات: - مع ذلك، ها هي العلبة فارغة يا سيدتي العزيزة. فمن المؤكد قد أخذ احد ما كان فيها.

فدقّ قلب صوفيا بشدّة أثناء هذا الكلام. وكانت

واقفة مختبئة وراء الحاضرين، محمرّة الوجه من شدّة الخجل، وجسمها كله يرتجف. فبحثت عينا السيدة دريان عن ابنتها. وإذْ لم تبصرها نادتها: صوفيا، اين انتِ، يا صوفيا؟ ولمّا لم تجاوبها صوفيا، راحت السيدات اللواتي كانت تختبئ وراءهن يتعجبّنَ، وقد لمحتْهن ينظرن اليها مستغربات. فظهرت على صوفيا علامات الخجل والاضطراب واكتشف الجميع بدون صعوبة أنها هي السارقة. فقالت لها أمّها: اقتربي، يا صوفيا. فتقدّمت الفتاة على مهل، ورجلاها المرتجفتان تكادان تحملانها.

الام: - اين وضعت اللوازم التي كانت داخل العلبة؟

صوفيا (مرتجفة): - انا لم آخذها، يا ماما، ولم أخبّئها.

الام: - لا فائدة من الكذب والانكار، يا آنسة أَرجعي كل شيء حالًا، اذا كنت لا تريدين ان اقاصصك بقساوة كما تستحقين.

صوفيا (باكية): - لكن، يا ماما، أُؤكّد لك أني لم آخذ شيئًا.

الام: - إتبعيني، يا آنسة.

ولما وقفت صوفيا جامدة بدون حراك، أمسكتها امها وجرتها من يدها رغم تمنّعها، الى غرفة الالعاب. وراحت تبحث في أدراج الطاولة الصغيرة. وعندما لم تجد ما تفتّش عنه بدأت تخاف من أن تكون قد اتّهمت صوفيا ظلمًا. حين اتّجهت نحو الطاولة الكبيرة ازداد ارتجاف صوفيا خاصّةً حين فتحت والدتها الدُرْج ولمحت لوازم علبة الشغل اليدوي التي أخفتها صوفيا فيه.

بدون ان تتكلم، أمسكت بصوفيا وضربتها بالقضيب ضربًا موجعًا، لم تلجأ الام اليه قبْلًا. فصرخت صوفيا وطلبت العفو، لكن القضيب فعل فعله كما يجب، ولا سبيل للإنكار انها استحقت ذلك بعدل. فأفرغت الوالدة الدُرْج وأخذت جميع اللوازم وأرجعتها الى علبتها، وتركت صوفيا تبكي وحدها في تلك الغرفة. وكانت

خجلة الى درجة لم تجرؤ ان تدخل للعشاء. وحسنًا فعلت لأنّ والدتها أرسلت اليها خادمتها لترافقها الى غرفتها حيث تعشّت وقضت السهرة وحدها، وبكت طويلًا. وكانت الخادمة على رغم تدليلها إيّاها كالمعتاد قد أغتاظت من سلوكها المعيب هذا، ودعتها سارقة. وقالت لها:

الخادمة: - بعد الآن يجب ان أقفل على كل شيء خوفًا من أن تسرقيه. فاذا ضاع أيّ غرض في البيت، سنكتشف السارقة بسرعة، ونذهب رأسا للتفتيش في أدراجك.

في اليوم التالي نادت السيدة دريان ابنتها صوفيا وقالت لها:

الام: - إسمعي، يا آنسة ما كتبه لي والدك حين أرسل اليّ علبة الشغل: عزيزتي، اشتريت علبة شغل رائعة وأرسلتها اليك. هي لصوفيا، لكن لا تقولي لها ذلك ولا تعطيها إيّاها حالًا. قدّميها لها هدية اذا ظلّت مدّة ثمانية

ايام عاقلة. دعيها تبصر العلبة، ولكن لا تقولي لها اني اشتريتها لأجلها. لأنّي لا أريدها ان تكون عاقلة أملًا في غاية أو طمعًا في هدية جميلة. أريد ان تكون عاقلة لمجرد رغبتها في ان تظلّ عاقلة وطيّبة القلب. كما ترين، تابعت الأمّ قولها، عندما سرقتِ مني، ما سرقتِ إلّا ما هو لكِ، وما يخصّك انتِ بالذات. وبعد ما فعلتِه، مهما كنت عاقلة مدة شهر، فلن تحصلي أبدًا على هذه العلبة. وأملي كبير بأن يفيدك هذا الدرس، فلا تعودي الى عمل هكذا قبيح ومخجل.

بكت صوفيا مرارًا، وتوسّلت الى والدتها كي تسامحها. أخيرًا رضيت الام بأن تسامحها، ولكنها لم تقبل ابدًا بأن تعطيها العلبة. وفيما بعد فضّلت أن تمنحها لإليزابيت الصغيرة التي تشتغل بمهارة ورغبة وتظل عاقلة محبوبة. حالما علم بولس الطيّب القلب الكريم الأخلاق بما فعلته صوفيا استاء جدًّا. فظل مدّة اسبوع يمتنع عن الذهاب اليها. لكنه عندما عرف كم أسفت وندمت على

تصرفها، وكم خجلت من تسميتها سارقة، ذهب لزيارتها، وبدلًا من توبيخها راضاها وقال لها:

بولس: - أتعلمين، يا صوفيا المسكينة ما يجب عليك ان تفعلي لكي ينسى الجميع سرقتك؟ ان تكوني دائمًا شريفة وأمينة حتى لا يظنّ احد بك سوءًا في المستقبل.

فوعدته صوفيا بأن تصلح سلوكها وأن تكون شريفة وأمينة على الدوام. وقد وفت بوعدها فعلًا.



١٩

الحمار

ظلت صوفيا عاقلة مدة خمسة عشر يومًا. ولم ترتكب أيّ ذنب. فقال عنها بولس انها لم تغضب منذ زمان طويل. وقالت الخادمة انها أصبحت طائعة. ووجدت أمها أنها لم تعد شرهة ولا كاذبة ولا متكاسلة. فأرادت ان تكافئها، لكنها لم تعرف ماذا كان يعجبها حقيقةً.

ذات يوم كانت الام تشتغل، والنافذة مفتوحة، بينما كانت صوفيا تلعب وبولس أمام البيت، فسمعت حديثًا أعلمها بما كانت تريده صوفيا.

بولس (وهو يمسح وجهه): - كم أنا متضايق من

الحرّ! أكاد أسبح في عرقي.

صوفيا (تمسح عرقها): - وأنا أيضًا، مع أننا لم نشتغل كثيرًا.

بولس: - لأنّ عرباتنا اليدوية لنقل الاغراض صغيرة.

صوفيا: - اذا أخذنا عربة البستان الكبيرة عجّلنا في النقل.

بولس: - لن تساعدنا قوّتنا على جرّها. لقد قصدتُ يوما أن أجلبها، وحين أردت ان أمشي بها جرّني ثقل العربة وانقلب على الارض كل التراب الذي كانت تحويه.

صوفيا: - لكن جُنَيْنَتنا لن تحتاج الى تراب كثير. فقبل أن نحرث أرضها ونزرعها علينا ان نجرّ اليها مئة عربة مملوءة ترابًا جديدًا، مكانه بعيد ويُتْعِبنا نقْله من هناك الى هنا.

بولس: - ماذا تقصدين؟ سيطول هذا النقل، ولكننا

سنتوصل الى إتمامه.

صوفيا: - لو كان عندنا حمار نظير ما عند كميليا ومدلين وعربة صغيرة أيضًا، لهان علينا الشغل وانتهى في وقت قصير.

بولس: - هذا صحيح. لكن ليس عندنا حمار، وعلينا أن نعمل شغل الحمار.

صوفيا: - إسمع، يا بولس، لديَّ فكرة.

بولس (ضاحكًا): - اذا كان لديك فكرة، فمن المؤكّد انها حمقاء لأن كل أفكارك ليست صالحة بالإجمال.

صوفيا (وقد نَفَدَ صبرها): - لكن، اسمعني قبل ان تسْخر مني. ان فكرتي ممتازة.

كم تعطيك أمّك من الدراهم «كخرجيّة» في الاسبوع؟

بولس - فرنكًا واحدًا أعطي منه حسنة للفقراء

وأصرف الباقي على التسليات.

صوفيا: - حسنًا. انا أيضًا آخذ فرنكًا. فيصبح المجموع فرنكين في الاسبوع. فبدلًا من صرف هذه النقود نحتفظ بها ونجمعها حتى يصير لدينا ما نشتري به حمارًا أو عربة نقل.

بولس: - تصبح فكرتك صالحة اذا كان ما نحصل عليه لا فرنكين بل عشرين فرنكًا. لكننا بفرنكين فقط لا نستطيع أن نعطي حسنة للفقراء، وهذا ليس عملًا مشكورًا. ثم علينا أن ننتظر سنتين حتى يصبح عندنا ما نشتري به الحمار والعربة.

صوفيا: - فرنكان كل أسبوع. فكم يصير المبلغ في شهر؟

بولس: - لست أدري بالضبط. غير أني أعرف أنه مبلغ زهيد.

صوفيا (تفكّر): - لديَّ فكرة أخرى. اذا طلب كل

منا من أمه أن تعطيه حالًا كل المبلغ الذي تخصصه له بمناسبة العيد؟

بولس: - لن ترضيا أبدًا.

صوفيا: - لنطلب منهما ذلك، على كل حال.

بولس: - أطلبي أنت اذا أردت. أما أنا فأفضّل ان انتظر ما ستقوله لكِ أمك، ولن أطلب أنا إلّا اذا رضيَتْ بذلك.

فأسرعت صوفيا الى والدتها التي تظاهرت بأنها لم تسمع، وقالت لها:

صوفيا: - ماما، ماما، هل تريدين ان تعطيني هدية العيد سلفًا؟

الام: - هدية العيد؟ لا أنوي ان اشتريها من هنا. سأشتريها بعد رجوعنا من باريس.

صوفيا: - يا ماما، أريد أن تعطيني المبلغ الذي ستشترين به هدية لأني بحاجة اليه الآن.

الام: - كيف يمكنك ان تحتاجي الى كل هذه الدراهم؟ اذا كانت لأجل الفقراء قولي لي فأعطيك ما يلزم. فأنتِ تعرفين أني لا أرفض ابدًا مساعدة الفقراء.

صوفيا (مرتبكة): - يا ماما، هذا ليس للفقراء، هذا...لشراء حمار.

الام: - ولماذا الحمار؟

صوفيا: - يا ماما، انا وبولس نحتاج اليه لأمر ضروري. أُنظري كم أنا أشكو من الحرّ، بولس يشكو أكثر مني. لأنّنا نقلنا ترابًا كثيرًا في عربتنا اليدوية الصغيرة الى الجنينة.

الام (ضاحكةً): - وهل تظنين أن الحمار سيدفع عربة اليد عنكما؟

صوفيا: - لا يا ماما، انا اعرف جيّدًا أن الحمار لا يدفع عربة اليد. لم أقل لك اننا سنشتري مع الحمار عربة كبيرة بدواليب، نربط اليها الحمار، وهكذا ننقل ترابًا

كثيرًا بدون أيّ تعب.

الام: - أُقرّ بأن فكرتك جيدة.

صوفيا (وهي تصفّق): - أنا أعرف أنها جيّدة. (وتصيح من النافذة) بولس، يا بولس.

الام: - انتظري قليلًا قبل أن تفرحي. فكرتك جيدة، لكنّي لا أريد مع ذلك أن أعطيك ثمن الهدية.

صوفيا (مدهوشة): - ما العمل اذًا؟

الام: - ستبقين هادئة، وتظلّين عاقلة حتى تستحقّي الحمار والعربة الصغيرة التي سأشتريها لك بأقرب وقت.

صوفيا (تقفز من الفرح وتعانق أمها): - ما أسعدني، ما أسعدني! أشكركِ يا حبيبتي ماما. بولس، يا بولس، أصبح عندنا حمار وعربة. تعالَ اذًا بسرعة.

بولس (مسرعًا): - أين، أين هما؟

صوفيا: - الماما ستعطينا إياهما.

الام: - نعم ستحصلان عليهما، انت وبولس كمكافأة على طيبة قلبك وطاعتك وبقائك عاقلة، وخاصة لأشجّعك انت على تقليد ابن خالتك، فتكوني دائمًا لطيفة ومجتهدة كما أنتِ منذ خمسة عشر يومًا. تعالي معي الى البستاني لُمْبار لنشرح له المسألة. فيشتري لنا حمارك وعربتك.

فلم يترك الولدان سبيلًا لتكرار هذا القول مرتين، بل سبقا السيدة دريان. فذهبوا كلهم الى فسحة الدار لمقابلة لُمْبار الذي يتفقّد ما كان اشتراه من شعير. فراح الولدان يشرحان له بحيوية ما يريدان. وكانا يتكلمان معًا بعجلة، فلم يفهم لُمْبار شيئًا، بل كان ينظر اليهما بدهشة وكذلك الى السيدة دريان التي تكلمت أخيرًا وأفهمته المطلوب.

صوفيا: - أرجوك أن تذهب يا لُمْبار بدون تأخير فنحن بحاجة الى الحمار حالًا قبل العشاء.

لمبار (ضاحكًا): - الحمار لا يحضر بتحريك العصى السحرية. يا آنسة، عليَّ أن أعرف اذا كان هناك واحد

للبيع وأن أركض الى كل الجهات لأجد واحدًا لطيفًا لا يرفس ولا يعضّ ولا يكون عنيدًا ولا صغير السنّ كثيرًا ولا عجوزًا كثيرًا.

صوفيا: – يا إلهي! كل هذه الشروط لأجل شراء حمار. اشترِ أول واحد تجده يا لُمْبار، وتنتهي المشكلة.

لمبار: – لا يا آنسة. لن اشتري أول حمار أجده. فأعرّضك للعضّ والرفْس.

صوفيا: – ماذا تقول؟ سيعرف بولس كيف يجعله هادئًا.

بولس: – لكن ليس حالًا. أنا لا أريد ان أجرّ حمارًا يعضّ ويرفس.

الام: – أُتركا لُمْبار يتصرف، يا ولديَّ. وسيشتري لكما ما تريدان بصورة مقبولة. هو يعرف شغله ويدبّر الامر كما يجب.

بولس: – والعربة، يا خالتي؟ كيف سنحصل على

واحدة صغيرة تصلح لربط الحمار اليها؟

لمبار: - لا ينشغل بالك، يا سيدي بولس. بانتظار أن يصنع النجار واحدة سأعيركما عربة كلاب كبيرة موجودة عندي. فتحتفظان بها طوال المدة التي تريدانها.

بولس: - شكرًا، يا لمبار. انت حقًّا رائع.

صوفيا: - إذهبْ، يا لمبار، اذهبْ سريعًا.

الام: - أُتركا له الوقت اللازم لوضع الشعير في مكانه. فاذا أبقاه في وسط الدار ستأتي الدجاجات والعصافير لتأكله.

رتّب لمبار أكياس الشعير في صدر مستودع الحبوب، واذ رأى قلّة صبر الولدَيْن، ذهب للتفتيش عن حمار في ذلك الجوار.

اعتقدت صوفيا وكذلك بولس أنه لن يتأخر في الرجوع ومعه الحمار المرغوب. فبقيا امام الباب ينتظرانه. ومن وقت الى آخر يذهبان الى فسحة الدار ليريا اذا كان

لمبار قد عاد. بعد مرور ساعة وجدا الانتظار مملًا بدون لعب.

بولس (وهو يتثاءب): - قولي، يا صوفيا، ما رأيك اذا تسلّينا قليلًا في البستان؟

صوفيا (وهي تتثاءب أيضًا): - أَوَلَا نتسلّى هنا؟

بولس (يتثاءب): - لا، على ما ارى. أنا أحسّ بأني لا أتسلّى.

صوفيا: - واذا وصل لمبار ومعه الحمار، لا يمكننا أن نراه.

بولس: - بدأتُ أظن أنه لن يأتي بسرعة.

صوفيا: - انا اعتقد بالعكس أنه سيصل قريبًا.

بولس: - لننتظرْ، أنا أريد من كل قلبي، لكن (يتثاءب) الانتظار مملّ جدًّا.

صوفيا: - إذهبْ اذا كنت قد ضجرت. أنا لا أفرض عليك أن تبقى بالغصْب. سأظل انا وحدي هنا.

بولس (بعد أن تردّد): - حسنًا، أنا ذاهب. فمن الغباء تضييع النهار في الانتظار. وما الفائدة؟ اذا جاء لمبار بالحمار سنعرف ذلك حالًا. أجل سنعلم بالامر سريعًا. ألا تظنين انه سيأتي الينا لكي يُعْلِمنا؟ واذا لم يجلب معه الحمار، ما الفائدة من ضجرنا بسبب طول الانتظار؟

صوفيا: - إذهب، يا استاذ، فأنا لا أمنعك.

بولس: - ها انتِ تحردين بدون ان تعرفي لماذا. الى اللقاء عند العشاء، ايتها الانسة المتذمِّرة.

صوفيا: - الى اللقاء ايها الاحمق العنيد المزعج الوقح.

بولس (تظهر منه حركة ساخرة): - الى اللقاء ايتها اللطيفة الصابرة المهذبة، الى اللقاء، يا صوفيا الكريمة.

فأسرعت صوفيا الى بولس لتضربه على ظهره. لكنه وقد توقّع ما ستفعله من غدْرها، ما كان منه إلّا أن ابتعد راكضًا. وعندما التفت ليرى إن كانت صوفيا تتبعه، أبصرها فعلًا تركض وراءه، وفي يدها عصى لمّتها عن

الارض. فضاعف سرعته واختبأ في الغابة. واذ لم تعد صوفيا تبصره رجعت الى البيت. وفكّرت: ما اسعدني لأن بولس أسرع ولم يدَعني أصل اليه! وإلّا لكنت ضربته بهذه العصى ضربة مؤْذية، فتعرف أميّ، ولن تقبل بأن تعطيني الحمار ولا العربة. وحين يعود بولس سأعانقه، لأنه حقًّا طيّب القلب كثيرًا، لكنه مع ذلك ساخر كبير.

ظلت صوفيا تنتظر لمبار حتى رنّ جرس العشاء.

فعادت مستاءة من انتظارها الطويل بدون فائدة. أمّا بولس الذي وجدته في غرفتها فنظر اليها بقليل من السخرية وقال لها:

بولس: - هل تسلّيْتِ كما يجب؟

صوفيا: - لا لقد ضجرت كثيرًا. أمّا أنتَ فحسنًا فعلتَ عندما قرّرت أن ترجع. فان لمبار لم يعد بعد، وهذا ما يزعجني كثيرًا.

بولس: - قلت لك ذلك.

صوفيا: - نعم قلته لي، وأنا أعرفه جيّدًا. لكن على كل حال، هذا مزعج للغاية.

طرق الباب أخيرًا. فصاحت الخادمة: أدخل. وانفتح الباب وظهر لمبار وصرخت صوفيا، وكذلك بولس صرخة فرح وسألاه:

صوفيا وبولس: - والحمار، أين الحمار؟

لمبار: - لا يوجد حمار للبيع في كل المنطقة يا آنسة. لقد بقيت أمشي منذ أن تركتكم، وسألت حيث ظننت أن أجد واحدًا، ولكن بدون جدوى.

صوفيا (باكية): - ما هذه المصيبة؟ يا الهي! ما هذه الكارثة؟ ما العمل؟

لمبار: - لا تحزني يا آنسة. من المؤكّد أننا سنلاقي واحدًا. فقط علينا ان ننتظر.

بولس: - أن ننتظر، كم من الوقت؟

لمبار: - ربّما اسبوعًا أو اسبوعين. غدًا سأذهب الى

سوق المدينة، وربّما وجدت جحشًا.

بولس: - جحشًا؟ وما هو هذا الجحش؟

لمبار: - هه. أنتَ العالم بكل شيء ألا تعرف هذا؟ الجحش هو حمار صغير.

صوفيا: - غريب هذا الجحش. أنا أيضًا لا أعرفه.

لمبار: - يا آنسة، الانسان لا يصبح عالمًا إلّا متى تقدّم في العمر. سأذهب الى والدتك، وأقول لها اني غدًا باكرًا سأذهب الى السوق لأجل الجحش. الى اللقاء يا سيدي ويا آنستي.

وخرج لمبار، وترك الولدَيْن حزينَيْن لأنهما لم يحصلا على الحمار. فقالا:

صوفيا وبولس (متنهّدَيْن): - ربّما انتظرنا مدة طويلة.

انقضى قبل ظهر اليوم التالي في انتظار الحمار. فقالت السيدة دريان لهما ان الامر يجري عادةً هكذا، وان من المستحيل الحصول على ما يزيد بالسرعة التي نتمناها.

فعلينا ان نتعوّد الصبر، وأحيانًا عدم الحصول على ما نشتهي.

فأجاب الولدان: - هذا صحيح.

لكنهما ظلّا ينتظران بقلّة صبر، عودة لمبار ومعه الحمار. أخيرًا ظنّ بولس الواقف عند النافذة انه سمع من بعيد صوت نهيق: هي ها، هي ها، لا يمكن ان يأتي إلّا من حمار. فصاح:

بولس: - صوفيا، صوفيا، أَصغي. هل تسمعين حمارًا ينهق؟ ربّما وصل لمبار.

الام: - يمكن أن يكون حمارًا من المنطقة او حمارًا مارًا على الطريق الى مكان آخر.

صوفيا: - يا ماما، إسمحي لي بأن أذهب وأرى اذا كان لمبار قد جاء بالجحش.

الام: - الجحش؟ ما هذه الطريقة في الحكي؟ إنّ أهالي البر وحدهم يسمّون الحمار جحشًا.

بولس: – لمبار، يا خالتي، هو الذي قال لنا ان الحمار الصغير يُدعى جحشًا وقد تعجّب كيف لا نعرف نحن ذلك.

الام: – لمبار يتكلم كأهالي البَرّ. لكن، انتما تعيشان بين أناس متعلّمين اكثر، وعليكما ان تتكلّما بصورة أفضل منهم.

صوفيا: – يا ماما، انا أيضًا أسمع صوت هي ها الحمار. هل نستطيع أن نذهب لنراه؟

الام: – إذهبا، يا ولديَّ. لكن لا تبتعدا أكثر من الطريق العريض. ولا تصلا الى ما بعد الحاجز.

فذهبت صوفيا وتبعها بولس كالسهم راكضَيْن بين الاعشاب على طرف الغابة ليصلا بأسرع وقت. فنادتهما السيدة دريان:

الام: – لا تمشيا فوق العشب لأنه عالٍ جدًّا، ولا تدخلا الغابة ففيها أشواك كثيرة.

لكنهما لم يسمعا وظلّا راكضَيْن يقفزان كالجداء.

فوصلا سريعًا الى الحاجز، وأَوّل ما رأياه على الطريق العريض كان لمبار ومعه حمار جميل، يجرّه من رسنه، لكنه ليس كبيرًا. فصاح الولدان:

صوفيا وبولس: – حمار حمار. شكرًا يا لمبار، شكرًا. ما أسعدنا الآن!

بولس: – ما أجمله!

صوفيا: – ما أعقله! هيّا نخبر أمي سريعًا.

لمبار: – هيّا، يا سيدي بولس اركبه والآنسة تركب وراءك، وأنا أمسك الرسن.

صوفيا: – واذا وقعنا؟

لمبار: – ليس من خطر. سأمشي الى جانبكما. لقد باعني اياه صاحبه وأكّد لي أنه جحش ممتاز ولطيف.

ساعد لمبار الولدين بولس وصوفيا على ركوب الحمار. ومشى بجانبهما. فوصلوا الى تحت نوافذ السيدة دريان

التي رأتهم قادمين، فخرجت لتشاهد الحمار عن قُرْب.

ثم أخذوه الى الإسطبل. وقدّمت له صوفيا بمساعدة بولس قليلًا من الشعير. وصنع له لمبار مفرشًا من القشّ لينام عليه. وأراد الولدان ان يظلّا هناك لمعاينته وهو يأكل. لكن وقت العشاء قد حان، وكان عليهما أن يغسلا يديهما، أو يسرّحا شعرهما. فتركا الحمار مع سائر الأحصنة الى الغد.

في اليوم التالي والأيام الأخرى ربط الحمار الى عربة الكلاب الصغيرة، بانتظار ان ينهي النجار صنع العربة الجميلة لنزهة الولدَيْن، وعربة صغيرة أخرى لنقل التراب واحواض الزهر والرمل، وكل ما يريدان نقله الى بستانهما. تعلّم بولس كيف يربط الحمار الى العربة ويفكّه وكيف يمسح جلده ويحضر له مفرشه ويقدّم له الاكل والشرب. وكانت صوفيا تساعده بمثل مهارته. واشترت السيدة دريان بردعة وسرجًا جميلًا لركوب الحمار. في الايام الاولى، كانت الخادمة تتبعهما. لكن

حين تبيّن أن الحمار لطيف كالحَمَل، سمحت لهما السيدة دريان أن يذهبا وحدهما، بشرط ان لا يخرجا من الحديقة.

ذات يوم كانت صوفيا تركب الحمار، وكان بولس يشدّه ويضربه بالقضيب. فقالت له:

صوفيا: – لا تضربه، لأنك تؤلمه.

بولس: – لكني عندما لا أضربه لا يمشي. على كر حال القضيب رفيع جدًّا ولا يؤلمه كثيرًا.

صوفيا: – خطرت ببالي فكرة. بدلًا من أن تضربه انتَ، ما رأيك إن أنا وخزته بمسلة؟

بولس: – هذه فكرة غريبة. أوّلًا، ليس معك مسلّة. ثم ان جلْد الحمار قاسٍ ولا يحسّ بها.

صوفيا: – هذا لا يهمّ. لنجرّب ذلك. من الأفضل أن لا تؤلمه المسلّة.

بولس: – لكن لا مسلّة معي أنا أيضًا.

صوفيا: - سنستعمل بدلًا منها دبّوسًا غليظًا أضعه في حذائي، ونجعل ترْس الدبّوس من جهة داخل الحذاء، ورأسه الى خارجه.

بولس: - ما أبرعك في مثل هذه الاختراعات. هل معك دبّوس؟

صوفيا: - كلّا. يمكننا ان نرجع الى البيت وأن أطلب دبّوسًا من الطبّاخ. فلا بدّ من ان يكون عنده واحد غليظ جدًّا.

فركب بولس وراءها على ظهر الحمار، ووصلا بعجلة الى المطبخ. فأعطاه الطباخ دبّوسين، وهو يظن ان صوفيا بحاجة الى إخفاء ثقب في ثوبها. فلم تُرِدْ صوفيا ان تضع الدبّوس في حذائها أمام البيت لأنّها أحسّت بأن ما تفعله حماقة، وكانت تخاف ان توبّخها عليها امها. فقالت:

صوفيا: - الأفضل ان أرتّب ذلك في الغابة. سنجلس

على العشب، فيأكل منه الحمار.

وحين وصلا الى الغابة نزلا عن ظهر الحمار الذي سرّه ان يأكل من العشب الموجود على طرف الطريق. وجلست صوفيا مع بولس على الارض وبدآ عملهما. أوَّل دبّوس ثقب الحذاء لكنه لوى الى درجة جعلته غير نافع. وبما ان معها دبوسًا آخر، أدخلاه بسهولة في الثقب الذي أحدثه الدبوس الأوّل. فوضعته صوفيا وَحَنْته، وأمسك بولس بالحمار، وساعد صوفيا على الصعود الى ظهره. فأخذتْ تضرب الحمار بكعب حذائها، وتشكّ بطنه بالدبوس. فما كان من الحمار إلّا أن أسرع راكضًا، وصوفيا المسرورة تشكّه مرة بعد مرة. فركض الحمار بأقصى سرعته حتى خافت صوفيا. فتمسّكت بالرسن. واثناء فزعها كانت توجّه كعب حذائها وفيه الدبّوس الى بطن الحمار. وكلما قرّبته يشكّه الدبوس، فيتألم ويسرع، وظلّ يقفز حتى قذف صوفيا عن ظهره الى بعد عشر خطوات. فبقيت على الرمل، وقد طاش وعيها من شدة

السقوط. أمّا بولس الذي أصبح على مسافة منها فأسرع خائفًا، وساعد صوفيا على النهوض، واذا بها ترى في يديها وتحسّ بأنفها بعض الخدوش. فسألت بولس:

صوفيا: – ماذا ستقول أمي؟ وماذا أشرح لها، عندما تسألني كيف وقعت؟

بولس: – نقول لها الحقيقة.

صوفيا: – لا، يا بولس لا. أرجوك ان لا تتكلم عن الدبّوس.

بولس: – ولكن، ماذا تريدين أن أقول؟

صوفيا: – ستقول أن الحمار جفل ورماني عن ظهره.

بولس: – لكن الحمار لطيف وهادئ جدًا. وما كان جمح لولا دبّوسك اللعين.

صوفيا: – اذا ذكرت الدبوس، وبّختنا أمي ومنعتنا من ركوب الحمار.

بولس: - انا اعتقد ان الأفضل ان نخبرها بالحقيقة دائمًا. ففي كل مرة أخفيتِ امرًا عن امك، علمتْ به على كل حال، وقاصصتكِ بشدة اكثر مما لو كنتِ بحت بالحقيقة.

صوفيا: - ولكن، لماذا تريد ان نبوح بقصة الدبوس؟ انا لست مضطرة الى الكذب في هذا الموضوع. سأقول الحقيقة وهي ان الحمار قد جفل ورماني عن ظهره.

بولس: - قولي ما تشائين. لكني أعتقد انكِ مخطئة.

صوفيا: - إني اطلب منك يا بولس ان لا تتكلّم وأن لا تذكر الدبّوس خاصةً.

بولس: - كوني مطمئنة. أنت تعرفين جيدًا أني لا أحب أن توبّخك والدتك.

حين تفقّد بولس وصوفيا حمارهما، المفروض فيه أن يكون قريبًا منهما، لم يجداه. فقال:

بولس: - لا شكّ في أنه عاد الى البيت.

فرجعت صوفيا مع ابن خالتها على الطريق الذي عاد منه الحمار. وكانا في غابة صغيرة غير بعيدة، عندما سمعا أصواتًا تناديهما، وشاهدا والدتَيْهما تسرعان نحوهما.

الوالدتان: - ماذا جرى، يا عزيزَيْنا؟ هل أنتما مجروحان؟ لقد شاهدنا الحمار يرجع وحده راكضًا، ورباط سرجه مقطوع، والخوف ظاهر عليه، وقد تعبنا حتى أمسكنا به. فخفنا ان يكون قد جرى لكما حادث مزعج، لا سمح الله.

صوفيا: - لا يا ماما، لم يصبْنا أيّ أذى أبدًا. فقط سقطت أنا عن ظهر الحمار.

السيدة دريان: - سقطتِ، وكيف، وما السبب؟

صوفيا: - كنتُ على ظهر الحمار، ولا أدري لماذا صار يقفز ويركض. فوقعت على الرمل واصيب أنفي وكذلك يداي ببعض خدوش خفيفة.

السيدة اوبار – ولماذا جمح الحمار وأسرع يا بولس؟ وكنت اعتقد أنه لطيف جدًّا.

بولس (مرتبك): – صوفيا كانت على ظهره، يا ماما.

السيدة اوبار: – حسنًا، فهمتُ. ولكن ماذا دفعه الى الجموح والركض؟

صوفيا: – لأنه خطر على باله أن يجمح ويركض بسرعة، يا خالتي.

السيدة اوبار: – اعتقد أن الحمار لم يعد يطيق البقاء هادئًا. على كل حال المسألة غريبة جدًا.

وما انهت السيدة أوبار كلامها حتى وصل الجميع الى البيت. فذهبت صوفيا الى غرفتها لتنظف وجهها ويديها، ولتغيّر ثيابها الموسَّخة الممزَّقة. ودخلت السيدة دريان عندما أكملت صوفيا ارتداء ملابسها النظيفة. ففحصت ثيابها الممزّقة وقالت :

الام: – لا بدّ من ان تكوني وقعتِ بعنف حتى

تمزقت ملابسك هكذا، وتوسّخت كما هي الآن.

الخادمة: - طبعًا، يا سيدتي.

الام: - ما بكِ يا صوفيا؟ هل أنتِ موجوعة؟

الخادمة: - ما افظع هذه الفكرة! هه هه ها. ما هذا الاختراع الجهنمي؟ انظري، يا سيدتي.

وأرت السيدة دريان الدّبوس الغليظ الذي شكّ يدها. وكانت صوفيا قد نسيت ان تنزعه بعدما وقعت.

الام: - ما معنى هذا؟ كيف دخل الدبوس في حذاء صوفيا؟

الخادمة: - لا شكّ انه لم يدخل هكذا وحده، لأنّ الجلد قاسٍ وَثَقْبه ليس بسهل.

الام: - تكلّمي، يا صوفيا. وفسّري لنا وجود هذا الدبّوس هنا، وعلى هذه الصورة.

صوفيا (مرتبكة جدًّا): - لا أدري، يا ماما. لا أدري أبدًا.

الام: - كيف لا تدرين؟ هل لبستِ حذاءك وفيه هذا الدبّوس بدون ان تلاحظيه او تشعري به؟

صوفيا: - نعم، يا ماما. لم ألاحظ شيئًا أبدًا.

الخادمة: - اسمحي لي يا آنسة صوفيا، هذا غير صحيح. انا ألبستك حذاءك. وأذكر جيّدًا أن هذا الدبوس لم يكن موجودًا فيه. هل من الممكن أن تجعلي امك تعتقد اني غبيّة ومهملة الى هذا الحدّ؟ هذا غير صحيح أبدًا، يا آنسة.

فلم تجاوب صوفيا. وازداد احمرار وجهها وارتباكها. فأمرتها والدتها بأن تتكلّم وتعترف بالحقيقة، وقالت:

الام: - اذا لم ترد الآنسة ان تبوح بالحقيقة، سأذهب الى بولس لأعرف منه ما جرى تمامًا. لأنه لا يكذب ابدًا.

فأجهشت صوفيا في البكاء. ولكنّها عاندت ورفضت أن تعترف. فذهبت السيدة دريان الى اختها السيدة

أوبار، فوجدت بولس هادئًا كعادته. وسألته عن معنى وجود الدبّوس في حذاء صوفيا على هذه الصورة. فلاحظ أن خالته غاضبة جدًا. وإذْ ظنّ أن صوفيا اعترفت بالحقيقة، أجاب:

بولس: - لقد استخدمت صوفيا هذا الدبّوس كالمهماز، يا خالتي.

الام: - ولماذا المهماز الذي يستعمل لوَخْز الحصان كي يسرع؟

بولس: - لكي تدفع الحمار الى الإسراع في الركض.

الام: - الآن فهمت لماذا جمح الحمار، ورمى بصوفيا الى الارض. فالدبّوس وخز الحمار المسكين وأوجعه، فتخلّص منه كما استطاع.

رجعت السيدة دريان لتواجه ابنتها صوفيا الكاذبة، وقالت لها:

الام: - علمتُ بحقيقة كل ما جرى. لو كنتِ قلتِ

لي ما فعلتِ، لكنتُ وبّختك قليلًا، لكني ما كنت قاصصتك. أمّا الآن فستظلّين شهرًا كاملًا محرومة من ركوب الحمار، لتتعلمي كيف تكذبين مرة ثانية، كما جرى الآن.

تركت السيدة دريان صوفيا تبكي. وعندما رآها بولس لم يمكنه إلّا ان يقول لها:

بولس: - لقد شرحت لك ذلك بوضوح، يا صوفيا. فلو كنتِ اعترفتِ بالحقيقة لكان بقي لنا الحمار، ولما حزنتِ كما هو حالكِ في هذه الساعة.

وظلّت السيدة دريان عند قرارها، ولم تسمح لهما بركوب الحمار، رغم تكرار طلب صوفيا ذلك عدّة مرّات، ووعودها بأنها لن تعيد الكرّة.



٢٠

العربة الصغيرة

حينما رأت صوفيا أن امها لا تسمح لها بركوب الحمار، قالت يومًا لبولس:

صوفيا: - بما اننا لا نستطيع ركوب حمارنا، يا بولس، تعالَ نربطه الى عربتنا الصغيرة، فيجرنا ونسوقه كلٌّ منا بدوره.

بولس: - أنا لا اطلب أكثر من هذا. ولكن هل تأذن لنا خالتي بذلك؟

صوفيا: - إذهب واسألها أن تسمح لنا. فأنا لا أجرؤ.

فأسرع بولس الى خالته وطلب منها الأذْن ليربط الحمار الى العربة. فوافقت بشرط ان تذهب الخادمة معهما. ولما أخبر بولس صوفيا بالأمر غمغمت قائلة:

صوفيا: – ما أزعج أن تكون الخادمة دائمًا برفقتنا ! فهي تخاف من كل شيء، ولن تدعنا نسرع بالعربة.

بولس: – طبعًا يجب ان لا نسرع بالعربة. أنتِ تعرفين أن خالتي تمنعنا من عمل كهذا.

لم تجاوب صوفيا، بل حردت، بينما كان بولس يركض لجلب الخادمة. ثم ربط الحمار الى العربة. بعد نصف ساعة كان الحمار واقفًا بالباب مع العربة. فصعدت صوفيا اليها وهي لا تزال حردانة. وكانت عابسة طوال النزهة كعادتها. أخيرًا، قال لها:

بولس: – انكِ تضايقينني بعبوسك وتصلّبك. أنا راجع الى البيت، لأنّي لا اطيق ان اتكلم وحدي وان ألعب وحدي وأن ارى علامات الحرد ظاهرة على

وجهك الحزين طوال الوقت.

ورغم تحويل بولس وجهة سير الحمار نحو البيت، ظلت صوفيا متشبّثة بحردها. وعندما وصلوا نزلت بعصبيّة فعلقت رجلها في الركاب وسقطت. فقفز بولس الى الارض وساعدها على النهوض.

لم تشعر صوفيا بأيّ ألم، لكن طيبة قلب بولس أثّرت فيها فراحت تبكي. فسألها وهو يقبّلها:

بولس: - هل أنتِ موجوعة، يا عزيزتي صوفيا؟ استعيني بي ولا تفزعي. فأنا أسندكِ.

صوفيا: - لا، لا، يا عزيزي بولس أجابت وهي تشهق باكية، انا لست موجوعة. اني ابكي ندمًا، أبكي لأني كنت لئيمة نحوك أنت الطيّب القلب الشفوق عليَّ.

بولس: - يجب ان لا تبكي لأجل ذلك، يا عزيزتي صوفيا. أنا لا فضل لي إن كنتُ طيّب القلب معك لأني

أحبك، وأجد لذّة كبيرة في إرضائك وإدخال السرور الى فؤادكِ.

فعانقت صوفيا بولس وقبّلته مرارًا وهي لا تزال تبكي بكاء مرًّا. ولم يعرف كيف يعزّيها. أخيرًا قال لها:

بولس: - اسمعي، يا صوفيا، اذا واصلتِ البكاء، فأنا أيضًا سأبكي معك لأني لا أستطيع أن أراك حزينة دامعة العين، بدون ان يدخل الحزن الى قلبي أنا أيضًا .

فمسحت صوفيا دموع عينيها، ووعدته وهي لا تزال تبكي بأن لا تنوح بعد الآن، ثم قالت:

صوفيا: - أتركني، يا بولس، أبكي. لأن هذا يهدّئ أعصابي، فأشعر بأن نفسي ترتاح هكذا.

لكنها عندما أبصرت الدموع تبلّل عينَيْ بولس مسحت عينَيْها واستعادت ملامح وجهها الضحوك، وصعدا سويّةً الى غرفتها حيث لعبا الى ان حان وقت العشاء.

في اليوم التالي طلبت صوفيا ان يتنزها من جديد في العربة التي يجرّها الحمار. فقالت لها الخادمة بأن عليها أن تقوم هي ببعض التنظيفات وانها لا تستطيع ان ترافقهما. فاضطرت الأمّ والخالة أن تصطحباهما الى زيارة على بعد ميل من البيت عند السيدة فلورْفيل. فقالت الفتاة بحزن:

صوفيا: - ماذا سنفعل نحن هناك؟

الام: - لو كنتُ واثقة بأنكما ستكونان عاقلَيْن لسمحت لكما بالتنزّه وحدكما في العربة. لكنكِ أنتِ، يا صوفيا، لديك أفكار غريبة لا تُطمْئنني وأخاف أن ينتج عنها حادث مؤسف تسبّبه إحدى فكراتك الفظيعة المشؤومة.

صوفيا: - لا، يا ماما. كوني مرتاحة البال. أؤكّد لكِ أنني لن أخترع أيّة فكرة لا ترضيك. أتركينا نذهب كلانا وحدنا. فالحمار لطيف وهادئ جدًّا.

الام: - الحمار لطيف عندما لا يضايقه أحد. لكن اذا

بدأتِ تشكّينه كما فعلتِ في ذلك اليوم، سيقلب العربة بكما معًا.

بولس: - يا خالتي، لن تعيد صوفيا الكرّة، ولا أنا أيضًا. لأني أستحق التوبيخ مثلها، وقد ساعدتها في ثقب حذائها بالدبّوس الغليظ.

الام: - أريد ان أترككما تذهبان وحدكما. فلا تخرجا من البستان، ولا تصلا الى الطريق العام العريض، ولا تسوقا بسرعة.

فصاح الولدان معًا:

صوفيا وبولس: - شكرًا يا ماما! شكرًا يا خالة! وأسرعا الى الاسطبل لربط الحمار بالعربة. وعندما أصبح كل شيء جاهزًا، أبصرا ابنَي المزارع الصغيرَيْن العائدَيْن من المدرسة، قد وصلا في تلك اللحظة. فقال لهما الولد الاكبر واسمه أندريه:

أندريه: - هل أنتما ذاهبان للنزهة في العربة، يا

سيدي؟

بولس: – نعم. أتريد أن ترافقنا؟

أندريه: – لا أريد ان أترك أخي وحده، يا سيدي.

صوفيا: – هيّا تعالَ انتَ وأخوك.

أندريه: – أريد من كل قلبي، يا آنسة. شكرًا لكما.

صوفيا: – هيّا، من الذي يريد ان يجلس على المقعد الامامي ليسوق؟

بولس: – اذا أردتِ أن تبدإي أنتِ فها هو السوط.

صوفيا: – لا، أنا أفضّل أن أسوق فيما بعد حين يكون الحمار قد تعب قليلًا وخفّ نشاطه.

فصعد الاولاد الاربعة الى العربة. وتنزّهوا مدّة ساعتَيْن، حينًا على مهل، وحينًا آخر بسرعة. وكانوا يسوقون كل واحد بدوره. لكن الحمار أخذ يتعب. ولم يعد يشعر بالسوط الصغير الذي كان الأولاد يضربونه

به. فراح يزداد تمهّلًا رغم ضربات السوط وتحميسات صوفيا التي كانت تسوقه.

أندريه: - يا آنسة، اذا اردتِ أن تجبريه على الركض، سأجلب لك غصن شجرة لتضربيه به فيسرع طبعًا أكثر.

صوفيا: - هذه فكرة حسنة. وستجعل هذا الكسلان يتنشّط.

فأوقفت الحمار. ونزل أندريه وكسر غصنًا كبيرًا من الآس البرّي، كان متدلّيًا على الطريق.

بولس: - إحذري، يا صوفيا. أنتِ تعرفين أن خالتي منعت وخْز الحمار. وهذا الغصن فيه بعض الشوك.

صوفيا: - هل تظن أن مفعول الشوك الصغير هو كدبّوس ذلك اليوم؟ على كل حال، لن أتركه يحسّ بالغصن.

بولس: - لماذا اذًا تركت أندريه يكسره ويجلبه لك؟

صوفيا: - لأنه أغلظ من السوط الذي نستعمله.

وضربت صوفيا ضربةً قوية ظهر الحمار الذي أخذ يسرع. ففرحت بنجاحها، وضربته ضربةً ثانية ثم ثالثة. فأسرع الحمار أكثر فأكثر. وضحكت صوفيا، وكذلك ضحك ابْنا المزارع. أما بولس فلم يضحك. لانه كان قلقًا قليلًا، وخاف ان يجري لهم حادث ما، وان يكون نصيب صوفيا التوبيخ والقصاص.

وصلت العربة الى منحدر حادّ. وضاعفتْ صوفيا ضرباتها. ففرغ صبر الحمار، وركض بسرعة. وإذْ ارادت أن توقفه كان الأوان قد فات، لأن الحمار انطلق كالسهم بأقصى سرعته. فصاح الاولاد كلهم معًا، الأمر الذي أفزع الحمار وجعله يزيد أيضًا سرعته. أخيرًا مرّت العربة على حجر كبير فانقلبت، وسقط الاولاد على الأرض بعنف وظلّ الحمار يجرّ العربة المقلوبة حتى تكسّرت. وكانت هذه العربة غير عالية فلم ينجرح أحد من الاولاد. لكنهم كلهم أصيبوا بخدوش في وجوههم. فنهضوا حزانى، وذهب ابْنا المُزارع الى اهلهما. ورجعت

صوفيا مع بولس الى البيت مشْيًا على الأقدام. وكانت صوفيا خجلة وقلقة. وكان بولس حزينًا جدًّا. وبعد أن سارا بعض الوقت بدون أن يتكلم أحد منهما، قالت:

صوفيا: - انا خائفة من أمي، يا بولس. ماذا ستقول لي هذه المرة؟

بولس (بحزن): - عندما أخذتِ الغصن، افتكرتُ أنكِ ستسيئين الى الحمار المسكين. وكان عليَّ أن أمنعك وأكلمك بحدّة، لربّما كنت سمعتِ تنبيهي.

صوفيا: - لا يا بولس، ما كنتُ سمعتُ كلامك. لأني ظننت أن الغصن لا يمكن ان يؤلم جلد الحمار السميك. لكن ماذا ستقول أمي؟

بولس: - مع الأسف، يا صوفيا، لم تتعلّمي الطاعة بعد. لو سمعتِ كلام املِك لكانتْ قاصصتك ووبّختك أقلّ بكثير مما تفعله في الوقت الحاضر.

صوفيا: - سأحاول أن أصلح نفسي. أُؤكد لكَ أني

سأجتهد. إني أجد الطاعة صعبة جدًّا.

بولس: – القصاص أصعب منها بكثير. ثم لاحظي أن ما تمنعنا والدتك عنه خَطِر للغاية. لأن ما نفعله يُلحق بنا الأذى. وهذا ما يجعلنا دائمًا خائفين من أن ترانا خالتي وأمي.

صوفيا: – هذا صحيح، يا الهي! هذه أمي آتية نحونا. هل سمعت ضجة العربة؟ أُركضْ سريعًا لندخل البيت قبل أن ترانا.

لكن مهما ركضا، فالعربة كانت أسرع منهما، وقد وقفت امام مدخل البيت تمامًا حين وصل اليه الولدان.

فشاهدت السيدة دريان والسيدة أوبار حالًا خدوش وجهيهما ويديهما، فقالت:

السيدة دريان: – ما هذا؟ أحادث جديد؟ ماذا جرى لكما؟

صوفيا: – يا ماما، كل هذا سببه الحمار.

السيدة دريان: - كنت واثقة من ذلك سلفًا. ولذلك كنتُ قلقة طوال مدّة زيارتي. اذًا هذا الحمار كالكلب المصاب بداء الكلب. فماذا فعل حتى أصابتكما كل هذه الخدوش؟

صوفيا: - لقد قَلَبنا، يا ماما، وأعتقد أن العربة تكسّرت قليلًا، لأن الحمار ظل يركض بعد ان قَلَبها.

السيدة اوبار: - أنا واثقة بأن هناك اختراعًا خطر ببالك فضايقتِ هذا الحمار المسكين.

فخفضت صوفيا رأسها ولم تجاوب.

واحمرّ وجه بولس، ولم يقلْ كلمة.

السيدة دريان: - يا صوفيا أرى على وجهك أن خالتك حزرت. قُولي الحقيقة واحكي لنا كل ما جرى.

فتردّدت صوفيا لحظة. لكنها قرّرت أن تبوح بالحقيقة. ثم حكت قصتها بكاملها لأمّها وخالتها، فقالت الأم :

السيدة دريان: - يا ولديَّ العزيزَيْن، منذ أن أصبح

لكما هذا الحمار والاضرار تتلاحق وتتكاثر عليكما لأن صوفيا تخترع دائمًا فكرات بعيدة جدًّا عن المنطق السليم.

سأبيع هذا الحيوان التعيس الذي يسبّب لكما كل هذه المشاكل.

صوفيا وبولس معًا: - لا، لا، نرجوك أن لا تبيعيه. لن نكرّر ذلك ابدًا.

السيدة دريان: - طبعًا لن تكرّرا الحماقة ذاتها. لأن صوفيا ستخترع غيرها، وربّما أخطر منها.

صوفيا: - لا، يا ماما. أؤكّد لك انني لن افعل ما لا تسمحين لي به. سأطيعكِ دائمًا. أعدكِ وعدًا صادقًا.

السيدة دريان: - انا أريد من كل قلبي أن اطوّل بالي أكثر. لكني انبّهكما الى أنكما عند أوّل فكرة جديدة تنفّذها صوفيا، لن يبقى الحمار عندكما.

فشكر الولدان السيدة دريان التي سألتهما عن مكان

الحمار. فتذكّرا حينئذ انه تابع ركضه، وهو يجرّ العربة المقلوبة.

فنادت السيدة دريان لمبار وقصت عليه ما جرى، وطلبت منه ان يذهب ويرى أين صار هذا الحمار. فأسرع لمبار، ورجع بعد ساعة، وكان الولدان في انتظاره، فصاحا:

صوفيا وبولس معًا: - ما الخبر، يا لمبار؟ أين الحمار؟

لمبار: - يا سيدي بولس، ويا آنستي صوفيا، لقد نزلتْ بالحمار مصيبة كبيرة.

صوفيا وبولس معًا: - ماذا تقول؟ أية مصيبة؟

لمبار: - يظهر ان الفزع سيطر على الحيوان المسكين فظل راكضًا باتجاه الطريق العامّ العريض، وكان الحاجز مفتوحًا فواصل ركضه. وكانت عربة سفر كبيرة مارّة بسرعة فائقة، عندما قطع الحمار الطريق، فلم يستطع السائق ان يوقف خَيْله في الوقت المناسب، فصدمت

العربة الكبيرة الحمار وعربته الصغيرة وداسته، وكادت عربة السفر أن تنقلب ايضًا. وحين فكّوا الحمار المدعوس عن العربة وأنهضوه كان قد مات، ولم يأتِ بحركة كأنه أصبح قطعة من الحطام. وعلى صراخ الولدين أسرعت الوالدتان وجميع الخدم. فقصّ لمبار مجدّدًا مصيبة الحمار المسكين. فأحاطت الوالدتان صوفيا وبولس بذراعَيْهما، وحاولتا أن تُهوّنا عليهما الأمر. لكن بصعوبة كلّيّة لأن الولدَيْن كانا حزينَيْن للغاية. فلامت صوفيا نفسها، لأنها سبّبت الموت لحمارها. وانتهى النهار بحزن شديد. وظلّت صوفيا مدة طويلة تبكي كلّما رأت حمارًا يشبه حمارها. ولم تُرِدْ أن يكون لها غيره؛ وحسنًا فعلت لأن أمها لم تكن تريد أن تشتري لها حمارًا آخر.



٢١

السلحفاة

كانت صوفيا تحب الحيوانات. وكانت قد حوت صوصًا وسنجابًا وهرّة وحمارًا. ولم تسمح لها أمها بأن تحوي كلبا خوفًا من أن يُصاب بمرض الكَلَب الخطر، كما يحدث في أغلب الأحيان. فسألت يومًا امها:

صوفيا: - أيّ حيوان استطيع أن أحوي؟ أريد واحدًا لا يؤذيني ولا يهرب ولا يعذّبني أثناء الاعتناء به.

الام (ضاحكة): - لا أرى غير السلحْفاة التي تناسبك.

صوفيا: – هذا صحيح. السلحْفاة لطيفة جدًا ولا يمكنها أن تهرب لأنها بطيئة.

الام: – واذا أرادت ان تهرب، فلديكِ الوقت الكافي لإرجاعها.

صوفيا: – إشتري لي اذًا سلحْفاة، يا ماما، اشتري لي سلحْفاة.

الام: – ما هذا الجنون؟ كنت أمزح عندما كلمتك عن السلحفاة. انها بهيمة بشعة ثقيلة مملّة ومزعجة. ولا أظنك تحبّين مثل هذا الحيوان البليد.

صوفيا: – ارجوك، يا ماما. ستسلّيني كثيرًا، وسأكون عاقلة جدًا لأستحقّها.

الام: – بما انك تشتهين الحصول على هذه البهيمة القبيحة الرأس، يمكنني ان اعطيك إيّاها. ولكن بشرطين: الأوّل أن لا تتركيها تموت جوعًا، والثاني أن أحرمك منها لدى أوّل غلطة كبيرة ترتكبينها.

صوفيا: - قبلتُ بالشرطين يا ماما، قبلت. فمتى أحصل على السلحفاة؟

الام: - بعد غد. سأكتب في هذا الصباح الى والدك الموجود في باريس، وأطلب منه أن يشتري لك واحدة، ويرسلها غدًا مساءً بعربة السفر. فتصل الينا بعد غد باكرًا.

صوفيا: - أشكرك ألف مرة، يا ماما. سيأتي بولس غدًا ليبقى عندنا مدة خمسة عشر يومًا. وسيكون لديه الوقت الكافي ليتسلّى معي بالسلحفاة.

في اليوم التالي وصل بولس، ففرحت صوفيا كثيرًا. وعندما أخبرته بأنها تنتظر سلحفاة سخر منها، وسألها عمّا ستفعله بهذه البهيمة البشعة.

صوفيا: - سنعطيها أوراق الخس، وسنصنع لها مفرشًا من التبْن، وسنجلب لها عشْبًا طريًّا. أؤكّد لكَ اننا سنتسلّى بها كثيرًا.

في اليوم التالي وصلت السلحفاة. وكانت كبيرة بحجم الصحن وسميكة مثل غطاء القِدْر. لونها شنيع ووسخ، وكانت تخبّئ رأسها. فصاح:

بولس: - يا إلٰهي! ما أبشعها!

فردّت الفتاة وهي مزعوجة قليلًا:

صوفيا: - انا أجدها جميلة لا بأس بها.

بولس: - بنوع خاص، وجْهها جميل، وابتسامتها حلوة.

صوفيا: - دعني مسرورة. أنت تسخر من كل شيء.

بولس: - وما أحبه فيها أكثر هو منظرها البديع ومِشْيتَها الرشيقة!

صوفيا (مستاءة): - أُسكتْ، قلتُ لك. سأحرمك مر لَمْس سلحفاتي اذا تابعت هُزْءك.

بولس: - إحرميني منها، ارجوك ان تحرميني منها. فلن آسف أبدًا على روحها المرح.

وأرادت صوفيا ان تهجم على بولس وتضربه. لكنها تذكّرت وعدها لأمها، ثم تهديد أمها اياها، فاكتفت بأن تنظر الى ابن خالتها بعين الغضب. وأرادت ان تأخذ السلحفاة لتضعها على العشب الاخضر. لكنها وجدتها ثقيلة جدًا. فتركتها تقع على الارض. فندم بولس لأنه سخر منها. وأسرع ليساعدها. وأعطاها فكرة وضع السلحفاة في فوطة ليحملاها كل واحد من طرف الفوطة. فما كان من صوفيا، وقد أفزعها إمكان سقوط السلحفاة إلّا أن رضيت بأن يساعدها بولس.

وعندما أحسّت السلحفاة بأنها على العشب الطريّ أخرجت قوائمها ثم رأسها، وراحت تأكل من العشب. فنظرت اليها صوفيا وكذلك بولس مدهوشين، فقالت:

صوفيا: - أرأيت ان سلحفاتي ليست بهيمة بليدة ولا مملّة؟

بولس: - لا، هذا غير صحيح. انها بشعة للغاية.

صوفيا: - من هذه الناحية أُقرّ بأنها قبيحة، وأن رأسها شنيع.

بولس: - ولها قوائم خشنة فظيعة.

وظل الولدان يعتنيان بالسلحفاة مدّة أيام بدون ان يحدث أمر فوق العادة. وكانت السلحفاة تنام في الغرفة على التِبْن، وتأكل أوراق الخسّ والعشب الأخضر، ويظهر عليها انها سعيدة.

ذات يوم خطرت ببال صوفيا فكرة. شعرت بأن الطقس حارّ، فظنت أن السلحفاة بحاجة الى البرودة، وأن حمّامًا في البحيرة ينفعها وينعشها. فنادت بولس وعرضت عليه ان يحمّما السلحفاة.

بولس: - نحمّمها؟ أين؟

صوفيا: - في بحيرة البستان. فماؤها بارد نظيف.

بولس: - أخاف ان يؤذيها ذلك.

صوفيا: - بالعكس، السلحفاة تحب الاستحمام كثيرًا،

وستفرح به جدًّا.

بولس: - كيف عرفتِ أن السلحفاة تحب الاستحمام؟ انا أعتقد أنها لا تحب الماء ابدًا.

صوفيا: - بل أنا واثقة بأنها تحبه كثيرًا. ألا يحب السرطان الماء؟ وهل الصَدَف لا يحب الماء؟ هذه الحيوانات تشبه السلحفاة قليلًا.

بولس: - هذا صحيح. على كل حال نستطيع ان نجرّب.

وأمسكا بالسلحفاة التي كانت تتدفّأ هادئة في الشمس على العشب. وحملاها الى البحيرة وغطّساها في الماء. حالما أحسّت السلحفاة برطوبة الماء اخرجت حالًا رأسها وقوائمها المخبّأة، لكي تتخلّص من الماء. وعندما لامست قوائمها الخشنة أيدي بولس وصوفيا، تركاها كلاهما، فسقطت الى قَعْر البحيرة.

فخاف الولدان وأسرعا الى البستاني وطلبا منه أن

يُخرج السلحفاة المسكينة من الماء. فاستعجل البستاني في المجيء الى البحيرة لأنه يعرف أن الماء يقتلها. وكانت البحيرة قليلة العمق، فنزل اليها بعد أنْ خلع حذاءه وشمّر عن رجلَيْ سرواله. وقد رأى السلحفاة تتخبّط في قعر البحيرة. فسحبها بعجلة، ثم حملها الى جانب النار لتنشف. لكن البهيمة المسكينة كانت قد اخفت رأسها وقوائمها، ولم تتحرّك أبدًا. عندما أحسّت بالدفء اراد الولدان حملها الى العشب ووضعها في الشمس. فقال لهما:

البستاني: - انتظرا قليلًا، يا سيدي، ويا آنستي، لأحملها انا عنكما، ثم أضاف: أعتقد أنها لن تأكل أبدًا بعد الآن. فسألته صوفيا:

صوفيا: - هل تظن أن الحمّام قد أضر بها؟

البستاني: - لا شكّ في أنه أذاها. لأن الماء لا يناسب السلحفاة.

بولس: - أتعتقد أنها ستمرض؟

البستاني: - لا أدري إنْ كانت ستمرض. لكني اعتقد أنها ستموت.

صوفيا (صاحت): - يا الهي!

بولس (بصوت خافت): - لا تفزعي. انه لا يعرف ما يقول. هو يعتقد ان السلحفاة مثل الهرّة التي لا تحب الماء.

وكانوا قد رجعوا الى المرج الاخضر. فوضع البستاني السلحفاة بلطف على العشب. وراح الولدان ينظران اليها من حين الى آخر. لكنها ظلت بلا حراك. ولم تُخرج لا رأسها ولا قوائمها. فبقيت صوفيا قلقة، وبولس يطمْئنها قائلًا:

بولس: - يجب أن نتركها تعمل ما يعجبها. غدًا ستأكل وتتنزّه.

في المساء حملاها الى مفرشها المؤَلَّف من التبن

الناعم، ووضعا لها اوراق خسّ طريّة. وفي اليوم التالي ذهبا ليرياها فلاحظا أن أوراق الخسّ باقية على حالها، لأن السلحفاة لم تلمسها. فقالت:

صوفيا: - هذا غريب. انها عادةً تأكل طوال الليل.

بولس: - لنحملها الى العشب. ربما لم تحب أوراق الخسّ.

وكان بولس قلقًا، ولم يُرِدْ أن يعترف بذلك لصوفيا. ففحص السلحفاة بانتباه، ووجد أنها لا تزال بدون حراك. فقال لصوفيا:

بولس: - لنتركها هنا. فالشمس ستدفئها وتنعشها.

صوفيا: - هل تعتقد أنها مريضة؟

بولس: - نعم، أعتقد أنها كذلك.

ولم يُرِدْ أن يضيف قائلًا : إنّه يعتقد أنّها ماتت! كما بدأ يخاف ان تكون فعلًا قد ماتت.

ظلّ بولس وصوفيا مدّة يومَيْن يحملان السلحفاة الى

العشب الاخضر. لكنها لم تكن تتحرك. وكانا يجدانها دائمًا كما وضعاها، وأوراق الخسّ لا تزال على حالها كاملة. أخيرًا، ذات يوم وضعاها على العشب ولاحظا أن رائحتها أمست كريهة جدًّا، فقال:

بولس: - لقد ماتت، وها ان رائحتها باتت كريهة لا تطاق.

وكانا كلاهما بجانب السلحفاة حزينَيْن لا يدريان ما يفعلان. عندما وصلت السيدة دريان الي قربهما.

الام: - ماذا تفعلان هنا، يا ولديَّ؟ وأنتما هكذا جامدين كصَنَمَيْن الى جانب السلحفاة؟ وهي كما أراها بلا حراك.

قالت ذلك، وانحنت لتحمل السلحفاة. وإذْ فحصتها لاحظت أن رائحتها كريهة جدًّا. فصاحت وهي ترميها الى الارض:

الام - لقد ماتت، وباتت رائحتها كريهة لا تطاق.

بولس - نعم، يا خالة، اعتقد أنها ماتت.

الام: - ما سبب موتها؟ ليس الجوع طبعًا، لأنكما تضعان لها أكداسًا من العشب الطريّ كل يوم. ومن الغريب أن تموت بدون ان نعرف السبب.

صوفيا: - اعتقد، يا ماما، ان الحمام قد سبّب لها الموت.

الام: - الحمّام؟ ومن اخترع لها قصة تحميمها؟

صوفيا (خجلة): - أنا، يا ماما. ظننت أن السلحفاة تحب الماء البارد فحمّمتها بماء بحيرة البستان. فسقطت الى القعر، ولم نقدر أن نخرجها. فنادينا البستاني الذي أخرجها بعد أن بقيت مدة طويلة داخل الماء.

الام: - هذه أيضًا من فكراتك المشؤومة. لقد قاصصتِ نفسك، فما بقي لي ما اقوله لك. انما تذكّري أنكِ في المستقبل لن تحصلي على أيّ حيوان لتعتني به أو تربّيه. فأنت وبولس تقتلان هذه الحيوانات المسكينة او

تتركانها تموت جميعها. والآن لا بدّ من رمي هذه السلحفاة. تعالَ، يا لمبار، وخذ هذه البهيمة الميتة وارمها في حفرة بعيدة عميقة.

وهكذا انتهى عمر السلحفاة التي كانت آخر حيوان حصلت عليه صوفيا. بعد بضعة ايام سألت امها اذا كانت تستطيع ان تحصل على بعض الارانب التي تسرح في المزرعة. فرفضت أمها، وكان على الابنة ان تطيع. فظلّت صوفيا وحيدة مع بولس الذي كان يأتي غالبًا ليقضي بعض أيام برفقتها.



٢٢

السفر

قالت صوفيا يومًا لبولس: لماذا تتكلم خالتي أوبار وأمي دائمًا بصوت منخفض؟ ثم تبكي أمي وكذلك خالتي؟ أتعرف لماذا؟

بولس: – لا أدري أبدًا. مع أني سمعت في ذلك اليوم أمي تقول لخالتي: ان فراق أهلنا سيكون صعبًا، وكذلك فراق أصحابنا وبلدنا. فأجابت خالتي: خصوصًا للذهاب الى بلد بعيد مثل أميركا.

صوفيا: – فما معنى هذا؟

بولس: – انه يعني أن أمي وخالتي تنويان الذهاب الى

أميركا.

صوفيا: - هذا ليس هائلًا أبدًا. بالعكس هذا يسلّي كثيرًا وسنرى عددًا من السلاحف في أميركا.

بولس: - وطيورًا رائعة مثل الغربان الحمر والبرتقالية اللون والزرقاء والبنفسجية التي ليست كغربان السوداء البشعة.

صوفيا: - وسنرى الببغاوات والعصافير الصغيرة جدًا. فقد قالت لي أمي ان اميركا تحوي الكثير منها.

بولس: - وتحوي الناس المتوحّشين السود والصفر والحمر.

صوفيا: - انا أخاف من المتوحّشين، اذ ربما أكلونا.

بولس: - لكننا لن نسكن معهم. سنراهم فقط عندما يأتون ليتنزّهوا في المدن.

صوفيا: - فلماذا اذًا نذهب الى اميركا؟ نحن هنا بخير مرتاحون وسعداء.

بولس: - طبعًا، أنا اراك في أغلب الاوقات لأن منزلنا قريب من منزلكم. والأحسن هو أن نسكن معًا في اميركا. حينئذٍ سأحب تلك البلاد كثيرًا.

صوفيا: - ها هي أمي تتنزّه مع خالتي، وهما تبكيان أيضًا. أنا حزينة لرؤيتهما هكذا. ها هما تجلسان على المقعد الخشبي. تعالَ نسلّيهما.

بولس: - لكن كيف نسلّيهما؟

صوفيا: - لا أدري كيف، على كل حال، تعالَ نجرّب.

فأسرع الولدان الى والدتيهما، وقالت:

صوفيا: - عزيزتي ماما، لماذا تبكين؟

الام: - بسبب مسألة تحزنني يا صغيرتي العزيزة. ولا يمكنك ان تفهميها الآن.

صوفيا: - بل انا أفهمها جيّدًا، يا ماما. انك حزينة بسبب الذهاب الى أميركا. وانت تعتقدين أن ذلك لا

يفرحني. أوّلًا، بما أن خالتي وبولس سيأتيان معنا، سنكون سعداء جدًا. ثم اني أحب أميركا كثيرًا لأنها بلاد جميلة .

فنظرت الأم أوّلًا بدهشة الى اختها السيدة أوبار، ثم لم تستطع أن تخفي ابتسامتها عندما تكلّمت صوفيا عن أميركا التي لا تعرفها.

الام: - من قال لك اننا سنسافر الى أميركا؟ ولماذا ظننت أن هذا ما يحزننا؟

بولس: - يا خالتي، سمعتكما تتكلّمان عن السفر الى أميركا، وأنتما تبكيان. أُؤكّد لكما أن الحق مع صوفيا. سنكون سعداء هناك، اذا سكنّا معًا.

السيدة أوبار: - نعم، يا ولديَّ العزيزين، قد حزرتما. علينا ان نذهب فعلًا الى اميركا.

بولس: - لماذا اذًا، يا ماما؟

السيدة أوبار: - لأن أحد أصحابنا ويدعى السيد

فيشيني كان يعيش في اميركا، وقد مات وليس له أقرباء، وكان غنيًّا جدًا فترك لنا ثروة طائلة. ووالدك ووالد صوفيا مضطران للسفر الى اميركا لاستلام هذه الثروة. أنا وخالتك لا نريد أن نذهب الى هناك. لأننا غير مسرورين بالابتعاد عن أهلنا وأصحابنا وأرضنا.

صوفيا: - لكن هذه السفرة لن تطول مدى العمر. ألَيْس كذلك؟

السيدة دريان: - نعم، ستدوم ربما مدة سنة أو سنتين.

صوفيا: - لذلك، يا ماما، لا لزوم للبكاء. تصوّري أن خالتي وبولس سيفرحان كثيرًا لعدم بقائنا وحدنا.

فعانقت السيدة دريان واختها السيدة اوبار الولدَيْن الصغيرَيْن، وقالت الأولى:

السيدة دريان: - الحق معهما، يا أختي، سنظلّ معًا مدّة سنتَيْن، وستمرّان بسرعة.

ومنذ ذلك الحين لم تعودا الى البكاء. فقالت صوفيا

لبولس:

صوفيا: - أرأيت كيف سلّيناهما؟ أنا ألاحظ أن من السهل جدًّا على الاولاد أن يسلّوا أمهاتهم.

بولس: - لأن المحبة متبادلة بينهم.

بعد بضعة أيام، ذهب الولدان مع والدتَيْهما للقيام بزيارة وداع الى صديقَتيْهما كميليا ومدلين اللتَيْن تعجّبتا، حين عرفتا أن صوفيا وبولس سيسافران مع أهلهما الى اميركا.

كميليا: - كم من الوقت ستبقون هناك؟

صوفيا: - مدّة سنتَيْن على ما أظن، لأن اميركا بعيدة جدًا.

بولس: - وعندما نرجع سيكون عمر صوفيا قد اصبح ست سنوات وانا عمري سبعة أعوام.

مدلين: - وأنا أيضًا سيصبح عمري ثماني سنوات، وكميليا تسع سنوات.

صوفيا: - كم ستصبحين عجوزًا في عمر تسعة أعوام!

كميليا: - اجلبا لنا معكما من أميركا أشياء جميلة ونادرة الوجود.

صوفيا: - هل تريدين ان أجلب لك معي سلحفاة؟

مدلين - ما أبشع منظر السلحفاة! هي بهيمة قبيحة للغاية.

فلم يستطع بولس أن يتمالك نفسه من الضحك، فسألته:

كميليا: - لماذا ضحكت، يا بولس؟

بولس: - لأن صوفيا كان عندها سلحفاة، فاستاءت مني في أحد الأيام لأني قلت لها ما صرّحتِ به أنتِ الآن.

كميليا: - وماذا جرى لهذه السلحفاة؟

بولس: - ماتت بعد أن حمّمناها في ماء البحيرة.

كميليا: - مسكينة هذه البهيمة. أنا متأسفة لأني لم أشاهدها.

كانت صوفيا لا تحب التكلُّم عن السلحفاة. فعرضت الذهاب الى الحقول لقطف باقة أزهار. وعرضت كميليا الذهاب الى الغابة لقطف توت الأرض (الفريز). فقبل الجميع مسرورين ووجدوا منه الكثير، فأكلوا كل ما استطاعوا ان يقطفوه. بعد ذلك كان عليهم أن يفترقوا. فوعدت صوفيا وكذلك بولس ان يجلبا معهما متوحّشًا صغيرًا، اذا باعها اياه أحد الأميركيّين. وفي الأيام التالية تتابعت زيارات الوداع. ثم بدأ تحضير الحقائب. وكان السيد دريان والسيد أوبار ينتظران في باريس كل واحد زوجته وولده.

يوم السفر كان حزينًا. فبكت صوفيا، وبكى بولس حين غادرا المنزل والخدم وأهل القرية. وافتكرا أنهما ربما لن يعودا.

وكان الجميع يفكّرون أيضًا هكذا، وهم حزانى.

فصعدت الوالدتان والوالدان الى العربة التي يجرّها أربعة أحصنة. وتبعتهم الخادمات والوصيفات في عربة ثانية يجرّها ثلاثة جياد. وجلس على كل مقعد خادم ليسوق العربة. وبعد أن توقّفوا مدّة ساعة على الطريق لأجل تناول الغداء، وصلوا أخيرًا الى باريس للعشاء. فظلوا في باريس مدة ثمانية ايام لشراء ما يحتاجون اليه بداعي السفر، ولأجل المدة التي يفكرون ان يمضوها في أميركا. خلال هذه الأيام الثمانية، تسلّى الولدان كثيرًا بما شاهداه من جديد. اذ ذهبا مع والدتيهما للتنزُّه في غابة بولونيا، وفي قصر التويلّري وفي حديقة النباتات. وذهبوا لشراء حاجات كثيرة من ثياب وقبعات وأحذية وقفّازات وكتب قصص وألعاب ومؤونة للطريق الطويل. وكانت صوفيا تشتهي أن تحصل على كل الحيوانات المعروضة للبيع. وطلبت حتى أن تشتري زرافة طويلة العنق من حديقة

الحيوانات. وكان بولس يشتهي الحصول على جميع الكتب وجميع الصُوَر التي يشاهدها. فاشترى الأهل لكلٍّ من الولدين كيسًا للسفر كي يضع فيه لوازمه وما يحتاج اليه من أكل أثناء النهار وألْعابهما .

أخيرًا حان الوقت المحدَّد للسفر الى مرفأ الهافر حيث تنتظرهم السفينة التي ستنقلهم الى اميركا. وعندما وصلوا الى مدينة الهافر علموا أن السفينة المسمّاة «سيبيل» لن تصل إلّا بعد ثلاثة ايام.

فاستفادوا من هذه الفرصة للتنزّه في المدينة. فتسلّى الولدان كثيرًا بالضجة والحركة في الشوارع وبمشاهدة الأحواض البحريّة المزدحمة بالمراكب، وبالارصفة المغطّاة بالبضائع والببّغاوات والقِرَدة،وكل الاصناف المستوردة من اميركا. ولو اصغت السيدة دريان الى صوفيا لكانت اشترت لها عشرة قرود ومثلها ببغاوات الى ما هنالك من غرائب. لكنها رفضت رغم إلْحاح صوفيا ورجائها.

مضت هذه الايام الثلاثة كما مضت الايام الثمانية في باريس، وكما مضت السنوات الأربع من عمر صوفيا والسنوات الخمس من عمر بولس. مضت ولن ترجع ابدًا. فبكت السيدة دريان والسيدة أوبار بسبب تركهما وطنهما الجميل والغالي على قلبيهما. وكان السيد دريان حزينًا مثل السيد أوبار، وحاول كل منهما تعزية زوجته وولده اذ وعداهما بالرجوع الى بلادهم باقرب وقت ممكن. أما صوفيا وبولس فكانا مسرورين، ولم يزعجهما سوى مشاهدة كل منهما أمه تبكي. فصعد الجميع الى السفينة التي ستأخذهم بعيدًا جدًّا تحت الامطار وأهوال أخطار البحار. بعد بضع ساعات كانوا قد رتّبوا أمورهم في الغرف الصغيرة المخصّصة لهم. كل غرفة فيها سريران مع الحقائب واللوازم اليوميّة. فنامت صوفيا مع أمها وبولس مع والدته والأبوان معًا، وأكل الجميع على مائدة الربّان الذي أحب صوفيا كثيرًا، لأنها ذكّرته

بابنته مرغريت التي بقيت في فرنسا. وكان الربّان يلاعب غالبًا بولس وصوفيا، ويشرح لهما كل ما يدهشهما في السفينة، وكيف تسير على وجه الماء وكيف يساعده البحّارة في التقدم بنشر الأشرعة وغير أعمال متعدّدة.

وكان بولس يقول دائمًا : غدًا عندما سأصبح بحّارًا سأسافر مع الربّان. فكانت تجيبه صوفيا : لا أبدًا. أنا لا أريد أن تصبح بحارًا، بل ستظلّ معي.

بولس: - ولماذا لا تأتين أنت معي الى سفينة الربّان؟

صوفيا: - لأني لا أريد أن أترك أمي. سأبقى دائمًا الى جانبها، وانت ستبقى معي. هل سمعت؟

بولس: - سمعتُ، وسأبقى معك، لأنك تريدين ذلك.

كان السفر طويلًا. فدام أيامًا عديدة. والآن اذا اردتم ان تعرفوا ماذا جرى لصوفيا، عليكم ان تطلبوا من

أمهاتكم اعطاءكم كتاب «الفتيات الصغيرات المثاليّات» لتقرأوه. وستلاقون فيه صوفيا! واذا أردتم ان تعرفوا ماذا جرى لبولس ستعرفون ذلك عندما تقرأون كتاب «العطلة الصيفية». فتلاقونه فيه!

الفهرس


منشورات مكتبة سمير